روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

15

مغامرات "س"

Looloo

www.dvd4arab.com

أخوة الدم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

بداية

﴿ ويسألونك عن الروحِ قلِ الروحُ من أمر ربّى وما أُوتيتُمْ من العلمِ إلا قليلاً ﴾

(سورة الإسراء ، الآية ٨٥)

اللقاء السابع !

.. وأعود إليكم من جديد ..

ربما ما زال البعض يذكرنى ، وينتظرنى متسائلاً :

ـ تُرى ، هل يمكن أن نعرف هوية السيد (س) مع نهاية أحداث هذه المغامرة ؟!

لهؤلاء أقول :

ـ موعدنا فى الفصل الأخير .. وشكرًا على حفاوة الاستقبال !

لكنى واثقة من أن الأغلبية الساحقة لاتذكرنى ، وربما لم تسمع عن شخصى المتواضع من الأصل ، بل إننى ألمح من تعدو عيونه بسرعة فوق السطور ، بينما يدوى فى أعماقه السؤال بامتعاض هائل :

ـ أى جنون هذا الذى يدفعنى للتفريط فى نقودى مقابل كتاب أبله كهذا .. يحمل عنوانًا سخيفًا ، ومقدمة أسخف ، وأحداثًا لابد أنها السخافة نفسها قد تجمعت بين غلافين ؟

ولصديقى الممتعض هذا أقول ، قبل أن يفعلها ويلقى الكتاب جانبًا فى سخط :

ـ صبرًا ، لقد وقعت المأساة ووصل الكتاب إلى يديك بالفعل .. الأمر قد انتهى إذن .. فلم لاتجرب أن تسترخى وتطلق لنفسك العنان وتسبح مع سطوره حتى النهاية .. ولنتفاهم عند الفصل الأخير على نقودك الضائعة (إن كنت سأردها لك أم سيتولى الناشر ذلك نيابة عنى ..) ؟! اقتراح جيد ؟!

لا بأس .. لننتقل إذن إلى الخطوة التالية .. ألا وهى تقديم شخصى المتواضع ..

الاسم: (نسرين الجبالى) .. ابنة الدكتور (فاروق الجبالى) جراح المخ والأعصاب الشهير ..

السن : يا لها من مسألة نسبية !!

المهنة: طالبة فى كلية الإعلام / قسم صحافة .. وصحفية تحت التمرين فى جريدة (الأربعاء) الأسبوعية (بتوقيت أحداث المغامرة) ..

الحالة الاجتماعية: مخطوبة للرائد (هشام القاضى) بالمباحث الجنائية (بتوقيت كتابة هذه السطور) ..

الهوايات: البحث عن المتاعب ، ودس أنفى فيما لايعنينى ومضايقة خطيبى الغيور جدًا ..

صفات خاصة: التعلق الزائد بالأب ، وإثارة المشاكل ، والجنون !

طبعًا هذا ليس كل شىء عنى ، ولن يمكننى ـ مهما حاولت ـ أن ألخص ما رويته هنا من قبل فى ست لقاءات كاملة .. على من يطلب الاستزادة إذن أن يراجع ما فاته ، أما من رضى بقليله فأهلاً به ضيفا عزيزًا فى رحلتى الممتدة نحو حل لغزى الأبدى ..

هل أسمع من يسألنى :

ـ أى لغز ؟!

ظننتكم تعرفون .. أو على الأقل استنتجتم من أتحدث عنه !

ـ أعنى السيد (س) بالطبع !

عفوًا .. هل أسمع من يسألنى هذه المرة :

ـ ومن يكون هذا السيد المحترم ؟!!

.. ليسمح لى السائل العزيز بأن أتنحنح .. وأصمت قليلاً .. ثم أجيبه بكل اقتضاب :

ـ ليتنى أعرف !!

فمهما جنح بك الخيال يا سائلى العزيز ، لن تتصور أبدًا كم هو غريب وعصىّ علىَّ الجواب عن سؤالك !

إنه السؤال الذى أعيانى البحث عن جواب شاف له فى سبع مغامرات ؛ منها هذه المغامرة .. وصدقنى ؛ لاأعرف متى سأعرف ، بل إننى أجهل حتى إن كنت سأعرف يومًا أم لا !

لنتفق على تجاوز هذا السؤال مؤقتًا ، فمن يدرى ؟

ربما حملت هذه المغامرة بالذات جوابًا شافيًا !!

أقول : ربما !

لقد كانت بالفعل مغامرة مختلفة .. إن من كانوا معى فى المرات السابقة لسعداء الحظ حقًا إذ سيعرفون معنى هذا الاختلاف الذى أتحدث عنه .. أما ضيوفى الجدد ـ مازلت ألمح صديقى الممتعض وأقرأ فى عينيه الرغبة الملحة فى التخلص من الكتاب ومنى ـ فيمكننى أن أضمن لهم بعض الإثارة .. والكثير والكثير من الغموض ..

إن (إخوة الدم) مرعبون حقًا ، خاصة حينما يشعلون الشموع داخل عيون الجماجم فى قبو (قصر البارون) ..

ترى هل تكفى هذه العبارة للبداية المثيرة التى أبحث عنها ؟!

من جديد ، ليتنى أعرف !

* * *

(١)

وحدى كالمعتاد ..

جالسة فى الشرفة أراقب الشمس المائلة عند حافة الغروب البعيدة ، ليس معى إلا قدح النسكافيه الخالد ، وألبوم الصور القديمة ، ونبرات (عبد الحليم) الحزينة الحالمة ..

فى يوم .. فى شهر .. فى سنة تهدأ الجراح وتنام

يحلو لى من حين لحين أن أتسلى بالتقليب فى الذكريات التى لم أعشها ، أو التى لا أذكرها .. ولا أجد لذلك وسيلة أفضل من الصور الرمادية القابعة فى ثنايا الألبوم العتيق ، ذى الغلاف الأخضر الصلب ..

صورتى فى يوم مولدى الشقى ، كائن ضئيل غض وأحمق ، لايدرى من أمر نفسه شيئًا ، ولايدرك ما تخبئ له الدنيا فى الغد .. لقد جاء ليملأ الكون صراخًا وحركة ، هذه رسالته فى الحياة إن كان يدرك وقتها شيئًا كهذا ..

وعمر جرحى أنا أطول من الأيام

صور أبى القديمة .. وسيم هذا الرجل منذ نعومة أظفاره .. طفل أنيق ونظيف ينسدل شعره الناعم على مفرقه المنير ، ثم شاب يشع بالحيوية والمرح بين أقرانه لابسى المعاطف البيضاء فى أروقة (قصر العينى) ، تبرز قصة (البوجودى) موضة الستينات الشهيرة بوضوح على الهامات الممشوقة ، ثم طبيب يبتسم فى وقفته بجوار سرير أحد المرضى بوقار تسبغه المهنة الجليلة على كل من يمتهنها ، ثم الصعود المستمر بخطى ثابتة نحو شهادة (الدكتواره) التى خلدت الكاميرا لحظة تسلمه إياها بقسمات يملؤها الفرح الواثق ، ثم رحلاته حول العالم فى مؤتمراته الطبية العصية على الحصر ؛ مع تطور الموضة فى السبعينات إلى السوالف الطويلة والعريضة جدًا ، وياقات القمصان المدببة ، وسراويل (الشارلستون) الضيقة من أعلى والواسعة من أسفل (يا للفظاعة !!) ، ثم انخراطه فى سلك العمل وصوره مع زملائه وزميلاته و ...

وداع يا دنيا الهنا وداع يا حب يا أحلام

وأمى .. صورة زفافها لأبى ، وصور رحلة شهر العسل التى قضياها فى (الإسكندرية) ، وصورتها بعد أن ولدتنى ، تحملنى ذراعاها وهى تبتسم بغبطة فى حين لا أكف أنا عن الصراخ ، ثم ..

لا شىء ..

لقد انقطعت بعدها أسباب اتصالها بهذه الحياة ..

جاءت بى وذهبت .. هكذا بكل بساطة !

لماذا كلما تذكرت هذه الحقيقة ، أجد الدموع تحتشد فى نهايات قنواتى الدمعية وأوشك على الإجهاش بالبكاء ؟!

لماذا بعد كل هذه السنين ؟!

بل لماذا وكل مايربطنى بهذه الإساتة هو هذه الصور الرمادية المتوسطة الجودة ، إذ لست أذكر أبدًا أننى رأيت وجهها خارجها ؟!

هل هى مشاعر الحرمان من حنانها وعطفها ووجودها الضرورى فى حياتى برغم كل السنين التى تكيفت فيها مع الوضع برغم أنفى ؟!

هل هو الشعور الفطرى بأنها أمى التى حرمها الموت منى كما حرمنى منها برغم كل شىء ؟!

لن أعرف أبدًا ، وسأظل كلما مرت ذكرى (سعاد) بى أوشك على الإجهاش بالبكاء ..

نعم .. كان هذا هو اسمها .. (سعاد خورشيد) .. لاأظن أننى قد ذكرته من قبل .. لم ترد فرصة سابقة على أية حال !

حبيبى شايفك وانت بعيد وانا ف طريق السهر وحير

كل ما أعرفه عنها ـ عن طريق أبى والدادة (رئيفة) رحمها الله ـ أنها كانت من جنور أرستقراطية إقطاعية قديمة، كانت زميلة لأبى فى الحقل الطبى ـ كصيدلانية ـ وهكذا نشأ بينهما التعارف تحت سقف إحدى المستشفيات .. ظروف زواجهما أجهلها، لكنه تم بدليل وجودى ! كذلك أجهل كل شىء عن الظروف التى واكبت مفارقتها للحياة .. كنت حتى الأمس تلك الطفلة الصغيرة التى لايجب أن تفشى أمامها أسرار الكبار، واستمر الحال حتى الآن بنظرية القصور الذاتى، فلم أسأل ولم يرد أحد بالتالى أن يصدع رأسه بما لاطائل من ورائه ..

لكنى أحيانًا أندهش : لماذا لا أعرف أحدًا من ناحيتها .. جد أو خال أو قريب بعيد أو حتى صديقة مقربة ؟!

وأكف عن الاندهاش قبل أن يشرع ذهنى المتحمس فى وضع سيناريوهات، لن تجلب لى إلا المزيد من التساؤلات التى لن يجيب عنها أحد ..

لأتمعن فى وجه أمى أكثر .. لم أحمل الكثير من ملامحها، إذ تولى أبى مشكورًا مسئولية توريثى جيناته السائدة، لكن هناك ما يسمونه (الدم الواحد) .. ذلك الرابط الخفى الذى

يجعلك تقول واثقًا إن (فلانًا) هو ابن (فلان) دون أن تكون هناك أدنى علاقة تشابه فى ملامحهما !

نعم .. هى أمى .. لم يجدانى إذن عند عتبة الشقة ليدعيا بعدها أننى ابنتهما !

وكل خطوة فى بعرك ليل وشوق وذكرى وجرح جديد

لأكتف بهذا القدر من الذكريات اليوم .. ورائى كم رهيب من الدروس التى تنتظر من يذاكرها .. أسابيع قليلة وتبدأ امتحانات السنة النهائية الحاسمة .. سأغلق الألبوم وأعد فنجانًا آخر من النسكافيه (لزوم سهر الليالى فى طلب العلا) وأصحب (حليم) معى إلى غرفتى .. سأبدأ اليوم فى مذاكرة مادة (الـ ...

معذرة .. جرس الهاتف يرن ..

لقد نسيت رفع السماعة كما أفعل دومًا قبل بدء الاستذكار .. جل من لايسهو ..

أستطيع بالطبع أن أتجاهل الرنين حتى ينقطع، لكن هذه الرنة الطويلة المتصلة غير قابلة للتجاهل، فهى تعنى أن المكالمة واردة من خارج (القاهرة)، وربما من خارج (مصر) كلها ..

أمرى للّه .. لن تصنع بضع دقائق ـ وربما أقل ـ من التأخير فارقًا !

ـ ألو ...

ـ (نسرين) .. كيف حالك أيتها المشاكسة ؟!

ـ عمى (ممدوح) !

صحت بها فى غبطة ، إنه عمى ـ شقيق والدى الأصغر ـ المقيم فى (الإسماعيلية) !

ـ ما أخبارك ؟! وكيف حال (القاهرة) العامرة ؟

ـ بخير أنا وهى .. حدثنى أنت عن أخبار الماتجو والفراولة والسمك الشبار !

ضحك عمى ثم قال :

ـ تنتظرك بلهفة الصب المشتاق .. ألا تنوين المجىء قريبًا ؟

هززت كتفى بخيبة أمل ـ كأنه سيرانى ـ وأجبته :

ـ أتمنى ولكن .. الامتحانات اقتربت كما تعلم ..

ـ كان اللّه فى عونك .. وكيف حال أخى العزيز ؟

أجبته بخيبة أمل أشد :

ـ فى المستشفى ..

ـ أما زال فى دوامة العمل كعهده ؟

ـ ومن يمكنه أن ينتزعه منها ؟!

ـ صدقت .. بعض الناس قد ولدوا ليعملوا فقط !

يروى لى أبى دومًا عن كسل شقيقه الأصغر وانكماش طموحه (درعمى)(*) هو ، عاش حياته بالطول والعرض حتى وجد عملاً فى (الإسماعيلية) فاستقر وتزوج وأنجب وطلق زوجته هناك !

ـ .. يمكنك أن تتصل به على هاتف المستشفى .. ستجده هناك حتمًا إن كنت تريده فى شىء مهم ..

.. بينما يروى هو عن أبى أنه كان راهبًا فى محراب الطب منذ صغره ، يعشق مهنته حتى التداعى ، يداوى كل أفراد العائلة منذ كان فى السنة الثالثة ، وهو ما جعله الابتن المفضل لدى

(*) تخرج فى دار العلوم .

أبويه ـ جدى وجدتى ـ عنه وعن عمى الثالث ؛ الذى هاجر إلى (أمريكا) وأصبح أمريكيًا منذ سنين طويلة حتى إننى نسيته !

ـ فى الحقيقة أنا لا أريده هو .. أريدك أنت يا (نسرين) ..

غريبة .. ليس هناك أى شىء يمكن أن يربينى عمى بشأنه !

ـ مُرنى يا عماه ..

ـ فى الحقيقة .. أريد أن أطلب منك خدمة صغيرة ..

.. وهو لم يطلب منى أى شىء من قبل أيضًا !

ـ أطلب ما بدا لك ..

هكذا تتصرف الفتيات المهذبات !

ـ (حمادة) !

سألته مندهشة :

ـ ماذا عنه ؟!

قال :

ـ لدى عدة مشاوير مهمة فى (القاهرة) غدًا .. أنت تعلمين كم سيكون صعبًا اصطحاب طفل لم يكد يبلغ

الخامسة من عمره بين المكاتب والمصالح الحكومية طوال النهار ، لذا كنت ..

(حمادة) لمن لم يستنتج بعد هو الابن الوحيد لعمى من زوجته السابقة التى تزوجت غيره وسافرت مع زوجها إلى ..

إحم .. عفوًا .. إنها أسرار عائلية محظور نشرها .. يكفى أن أقول إنهما قد انفصلا منذ سنوات أربع تقريبًا !

ـ .. كنت سأطلب منك أن تعتنى به حتى المساء ..

قالها وقد فاح الحرج من صوته لتصلنى رائحته عبر السماعة ، ولم أملك أنا إلا أن أقول :

ـ على الرحب والسعة بالطبع ..

شممت المزيد من الحرج فى نبراته إذ قال :

ـ إن كان هذا سيعطلك عن المحاضرات أو المذاكرة فـ ..

أسرعت أقول بحماسة لم أدر مصدرها :

ـ كلا .. كلا .. غدًا لا توجد محاضرات فى الكلية .. وبالنسبة للمذاكرة فلا تقلق .. أستطيع تدبر أمرى جيدًا فى وجود (حمادة) !

لم أقل الحقيقة ، جدول الغد زاخر بما لذ وطاب من المحاضرات والسكاشن ، لكنى لم أتعود رفض خدمة طلبها منى أحد مهما كانت مسببات الرفض قوية .. بالإضافة لأنى تصورت أن المذاكرة فى وجود طفل هادئ مثل (حمادة) لهو أمر يسير جدًا ..

ـ أشكرك بشدة يا ابنة أخى البارة ..

ـ لا شكر على واجب يا عمى العزيز ..

ـ أنا أعرف هؤلاء الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم صغارًا لسبب أو لآخر ، واسألونى أنا ..

ـ خذى .. إنه يريد أن يحادثك ..

إنهم حساسون جدًا .. منطوون جدًا .. هادئون جدًا .. وحيدون جدًا جدًا ..

.. وسلم عمى (ممدوح) السماعة له ، وسمعته من بعيد يلقنه :

ـ قل لها : كيف حالك يا تانت (نسرين) !

.. مثلى أنا .. آه أنا .. وحيدة ..

وأتانى صوته عبر السماعة :

ـ كيف حالك يا تانت (نسرين) ؟

ـ بخير يا (حمادة) .. كيف حالك أنت ؟

.. واحتشدت الدموع فى نهايات قنواتى الدمعية ، وكدت أجهش بالبكاء !

★ ★ ★

ـ (حمادة) .. أنت يا ولد !
صاح بها عمى (ممدوح) فى ابنه الذى اندفع كالصاروخ إلى الداخل فور أن انفتح باب شقتنا أمامه ..

(٢)

ـ (حمادة) .. أنت يا ولد !

صاح بها عمى (ممدوح) فى ابنه الذى اندفع كالصاروخ إلى الداخل فور أن انفتح باب شقتنا أمامه ، حتى إننى عجزت عن رؤيته !

وقفت مذهولة لوهلة أمام عمى ، وقد زاد الاستيقاظ المبكر بعد ليلة من السهر الطويل مظهرى ذهولاً ، كانت الثامنة والنصف صباحًا ، ولم أكن قد نمت عندما ارتفع أذان الفجر من المسجد المجاور ..

ولكن .. كل شىء يهون فداء للواجب ، حتى الاستيقاظ المبكر !

تلاشى ذهولى بسرعة فحاولت الابتسام ؛ كنت كمصاص للدماء يبتسم ، لكن حرج عمى لم يتلاش وهو يمد يده اليمنى مصافحًا إياى ، بينما اليسرى تحمل حقيبة صغيرة ..

قال فى شىء من الارتباك :

ـ (نسرين) .. كيف حالك ؟! عذرًا ، فـ (حمادة) شقى بعض الشىء !

ـ لاتهتم ، كيف حالك أنت يا عمى ؟! إنه وقت طويل حقًا ..

لم يتغير عمى كثيرًا ، كان فى المرة الأخيرة التى رأيته فيها أكثر امتلاءً ولم يكن فى رأسه شعيرات بيضاء كهذه ، لكنها سنون لا أنكر عددها بالضبط .. بالتأكيد تزيد على الخمس إذ هى المرة الأولى التى أراه فيها بعد مولد (حمادة) ؛ السيد المبجل الذى لم أتشرف برؤيته حتى اللحظة ..

كدت أدعوه للدخول ، وبدأت فى التنحى عن موقفى أمام الباب لأقول : تفضل ، عندما ارتفع صوت شىء زجاجى يتحطم من جهة المطبخ !

فزعت وندت عنى شهقة ، بينما اندفع عمى داخلاً على الفور وقد استنتج كنه المصيبة ، أو على الأقل المتسبب فيها ، وتجاوزت فزعى لأندفع خلفه تاركة الباب مفتوحًا فى وجه أى قط ضال أو متسلل فضولى !

كان (حمادة) فى أول لقاء لى معه يقف باسمًا فى بلاهة أمام زجاج الكوب المكسور الذى كان يستكين بوداعة بجوار

الحوض ، وسط صف من الأكواب التى غسلتها بالأمس وتركتها ها هنا لتجف ، وفى يده قرطاس من الآيس كريم نجح فى أن يلوث به أغلب أثاث المطبخ ، ناهيك عن وجهه وملابسه ..

احمر وجه عمى (ممدوح) خجلاً وغضبًا ، وعند دخولى رأيته يقترب من (حمادة) فى بطء كأنه سيقتله ، لكنه لم يفعل أكثر من أن رفع يده الصغيرة الحرة وانهال على ظهرها بالضرب الخفيف الهين مع سيل من التوبيخ الأبوى الصارم :

ـ هكذا يا (حمادة) ؟! أهذه تصرفات الصبية المؤدبين التى اتفقنا عليها ؟!

وكان (حمادة) يبتسم !

ومع كل ضربة وعبارة يتلقاها كانت ابتسامته تتسع ، حتى تحولت فى النهاية إلى ضحكة منتشية ، كأنه يمارس لعبة مسلية ..

وعرفت على أى جحيم طفولى مقبلة أنا !

ـ اتركه يا عمى ، لم يكن كوبًا من الكريستال الثمين على أية حال ..

تركه عمى ـ كأنه كان ينتظر قولى هذا ـ وقال :

ـ إنها مسألة مبدأ ، عليه أن يتصرف بقليل من اللياقة !

قلت مهونة وأنا ابتسم ، متحاشية النظر إلى الكوب المكسور حتى لايظهر الأسى على وجهى :

ـ إنه مازال طفلاً ، لاتظلمه وتطلق عليه أحكام الكبار ..

ـ من هذه ؟!

قالها (حمادة) وهو يشير نحوى بإصبعه الغارق فى الآيس كريم ، بأسلوب جعله أشبه بأطفال الشوارع ، فالتفت إليه عمى وقال مربتًا على رأسه حتى يصمت :

ـ هذه تانت (نسرين) ، ابنة عمك التى حادثتها فى الهاتف بالأمس ..

اقتربت منه وجثوت على ركبتى ، وقلت محدقة فى وجهه الأسمر وشعره الأكرت وملامحه التى ورثها بالتأكيد من جهة أمه :

ـ كيف حالك يا (حمادة) .. اقترب منى حتى أقبلك ..

واندفع نحوى ضاحكًا ، فاتسخت ملابسى بالآيس كريم الذى انحشر فى المسافة الضيقة بينى وبينه ، وقبلته وقد اعتراني اشمئزاز بلا حدود ..

بداية رائعة ليوم حافل !

ـ كان من المفترض أن أتركه لدى الجيران ، إننى أفعل ذلك يوميًا عندما أذهب للعمل فى الصباح ، لكنهم بكل أسف مسافرون لظروف ما ..

قالها عمى ، وكنا نتجه نحو باب الشقة بعد أن تمت السيطرة جزئيًا على الموقف ..

نظفت ما تيسر من ملابسى والمطبخ ، وبدل (حمادة) ملابسه التى أحضرها عمى فى الحقيبة ؛ كأنه كان يتوقع الغدر من هذا الطفل الهادئ جدًا (تبًا لسذاجتى !) ، وشرب عمى كوبًا من الشاى فى الصالون مطوقًا بذراعيه (حمادة) فى قوة بينما الأخير يحاول التملص جاهدًا ، ليستمتع بممارسة شقاوته التخريبية الواضحة ، واكتشفت وقتها أننى تركت الباب مفتوحًا (خطأ لايجب أن أكرره بالذات وأنا وحدى) ..

لابد أن الرجل كان يحاول تبرير فعلته ، ولا أقول جريمته !

ـ لامشكلة يا عمى ، أليس (حمادة) أخًا أصغر لى ؟!

المشكلة أن التهذيب يجبرنا دائمًا على إظهار عكس ما نبطن !

ـ بوركت يا ابنتى ، لكنك يجب أن تأخذى الحذر ..

وتوقف عند عتبة الباب ، ثم استدار ليواجهنى متابعًا :

ـ .. إنه شقى للغاية ، منذ تركته أمه وأنا أعانى معه الأمرَّين ..

شعرت نحوه بإشفاق شديد عندما نطق الجزء الأخير من العبارة فى ألم ، كأن السنين لم تداو جرحه بعد ، وازداد شعورى أضعافًا عندما تنهد بحرارة ، ثم نفض رأسه كأنه يطرد منه أشباح الذكرى البعيدة ..

لكنى طبعًا لم أظهر أيًا من مشاعرى هذه حتى لا أزيد من آلامه ، وقلت مبتسمة :

ـ هكذا الأطفال دائمًا يا عمى ، خاصة من تبتعد عنهم أمهاتهم فى هذه ..

.. وانتبهت إلى أننى أزيد من آلامه بالفعل عن طريق غبائى المعهود !

ـ .. السن !

لاح على شفتيه شبح ابتسامة مُرة ، سرعان ما تلاشى وهو يقول :

ـ ومتى سيعود الدكتور ؟!

أبى ، كنت قد أخبرته فى جلستنا بالصالون أنه بات طوال ليلة الأمس فى المستشفى ، كأننى زوجة تشكو لأقربائها إهمال زوجها المتعمد !

ـ لامواعيد له ، من الممكن ألا يعود إلافى الغد ، هذا إن تذكر !

قلتها فى أسى وأنا أنظر إلى قدمىّ ، لو يدرك هذا الرجل كم أفتقده ، لو !

شعرت براحة عمى وهى تمتد لتربت على كتفى ، وبقوله فى عاطفة تشبه ما شعرت به نحوه منذ لحظات :

ـ كان اللّه فى عونه ، أخبرتك أنه يعشق عمله حتى الثمالة ، وما لنا فى هذا حيلة ..

أردت التفوه بعبارة حسرة ، لكنه سبقنى مردفًا ومغيرًا دفة الحديث :

ـ .. لكن ، أتعلمين شيئًا ؟!

ورفع براحته ذقنى لأراه يحدق فى عينى بحنان أبوى أفتقده ، متابعًا :

ـ لقد أصبحت أكثر جمالاً من قبل ، بكثير جدًا !

ابتسمت فى خفر ، بل وتضرج وجهى بحمرة وردية ، وهمست عائدة للنظر إلى الأرض :

ـ شكرًا ..

ـ (حمادة) الملعون أنساتى أن أسلم عليك مثل كل مرة ، هل تذكرين ؟!

قالها فاردًا ذراعيه ، ولما كنت أذكر فقد ارتميت فى حضنه ، كما كنت أفعل بمجرد رؤيتى له فى العهد البائد !

عندها وقع حادث قدرى بسيط ..

لقد ظهر الرائد (هشام القاضى) ـ خطيبى الغيور جدًا ـ مرتديًا زيه الرسمى الأبيض وقبعته ذات النسر عند نهاية الدرج !

وللعلم فقط : (هشام) يعلم جيدًا أن لى عم اسمه (ممدوح الجبالى) ، لكنه لم يره من قبل أبدًا ، وأظنكم تفهمون جيدًا ما أعنيه !

تركت حضن عمى ، ورآنى الأخير أنظر جهة (هشام) المتسمر بلا حراك ، الناقل بصره المشتعل بينى وبينه ، وكان لابد من حل لهذا الموقف السخيف على الفور ، حتى لايتطور إلى مهزلة .. ولحسن الحظ ، الحل بسيط جدًا ..

ـ صباح الخير يا (هشام) ..

قلتها فى اعتداد ، ثم أردفت على الفور مشيرة إلى عمى :

ـ هذا عمى (ممدوح الجبالى) الذى حدثتك عنه مرارًا ..

لم تتغير ملامح (هشام) ، واستمر ينظر إلى عمى نظرات متسائلة (كأنى أكذب !) ، بينما تهللت أسارير عمى ومد يده إليه هاتفًا فى حبور :

ـ أنت (هشام) بك (القاضى) ، خطيب (نسرين) ، أليس كذلك ؟

أجبت أنا :

ـ بلى !

وصافح (هشام) الرجل الودود محاولاً أن يذيب الثلوج المتراكمة فوق وجهه ، ثم قال خالعًا قبعته :

ـ تشرفت بلقياك يا سيدى !

محاولة بائسة ، لكنها أفضل من لا شىء قطعًا ..!

وبعد عبارات مجاملة كثيرة من التى يجيدها عمى إلى حد الاحتراف ، استأذن قائلاً :

ـ معذرة ، كان بودى أن أجلس معك فترة أطول ، لكنها المشاغل اللعينة التى لا تنتهى ..

ـ كان اللّه فى عونك يا سيدى ..

قالها (هشام) وقد بدأ فى تجاوز الصدمة ، حتى إنه أردف فى شهامة :

ـ .. سيارتى معى بالأسفل ، دعنى أوصلك لأى مكان تريده !

رفض عمى بشدة ، وبعد فاصل آخر من عبارات العرض والرفض أنهى عمى حديثه وهو يهبط الدرجات بالفعل :

ـ .. لا تقلق علىّ ، أنا أعرف طريقى جيدًا .. إلى اللقاء !

واختفى ..

طال الصمت بيننا ، (هشام) عادت الثلوج تتراكم فوق وجهه الطفولى ذى الشارب ، وأنا احتضنت جانب الباب المفتوح ، لأقول فى النهاية حتى لا يمتد بنا الصمت إلى نهاية العالم :

ـ والآن ؟!

أجابنى بسؤال :

ـ ماذا ؟!

قلت متظاهرة بالذكاء :

ـ لابد أن لديك ما يقال ، خاصة مع مجيئك فى هذا الوقت الباكر دون موعد مسبق ودون حتى اتصال هاتفى ..

ـ بالفعل ، إن هاتف المنزل معطل ، والمحمول ليس به رصيد ، وفكرت أن هناك ما يستحق أن تعرفيه بلا تأخير !

سألته أنا هذه المرة :

ـ ماذا ؟!

هز كتفيه وقال ببساطة :

ـ كنت قادم لأبلغك بسفرى !

ارتفع حاجباى بحركة تلقائية ، وسألته مجددًا :

ـ حقًا ؟! إلى أين ؟!

أجاب واضعًا قبعته فوق رأسه بدون سبب ؛ ربما حركة تلقائية أيضًا :

ـ إلى (المنيا) .. مأمورية عمل تستغرق ثلاثة أيام !

ـ ومتى ستسافر ؟!

ـ الآن ، فكرت أن أراك قبل الرحيل لأنى ..

وابتلع ريقه ، ثم استجمع مشاعره ليقولها ناظرًا إلىَ بكل الحب :

ـ .. سأفتقدك !

كم يكون وديعًا ورومانسيًا حين ينظر إلىَ هذه النظرات !

ـ وأنا أيضًا ..

وقرأ فى عينى ما هو أكثر منها ، قبل أن أردف :

ـ .. اهتم بنفسك جيدًا ..

ابتسم قائلاً وهو يتناول يدى فى يده :

ـ سأفعل ..

وطبع قبلة حانية فوق يدى ، ثم قال :

ـ لا إله إلا اللّه ..

أعطانى النصف ، وسأعطيه النصف الخاص بى ، ثم يجتمع النصفان عند التلاقى من جديد ، هذا تقليد معروف بين العشاق ..

ـ .. محمد رسول اللّه ..

وترك يدى وذهب ناحية الدرج ، وبدأت رحلة إغلاق الباب عندما فوجئت به يعود !

ـ بالمناسبة ..

قالها بصوت عال ، وتجمدت يدى القابضة على حافة الباب ..

ـ .. لا اعتراض لدى مطلقًا على أن يقبلك عمك ، ولكن .. لاتدعى هذا يتم مرة أخرى أمام الباب ، فلا أعتقد أن جميع سكان البناية يعرفون أن هذا الرجل عم لك ، خاصة أنه لايظهر كثيرًا !

قالها وقد حدق فى عينى ، ثم تركنى واقفة أمضغ ذهولى وانزلق فوق الدرجات بسرعة ، ولم أنتبه إلا وقد بلغ آخر الدرج بالفعل ..

سيبقى (هشام) ـ كما عهدته دومًا ـ طفلاً كبيرًا .. لابد أن أعتاد على هذا !

وقبل أن أغلق الباب هذه المرة أيضًا ، رأيت شخصًا يصعد الدرج ، لم يكن (هشام) وإنما شخص آخر أعرفه ..

إنه (صلاح) ، الفتى الذى يسكن بمفرده فى الشقة العلوية ، بينما يجمع ذووه الأموال فى إحدى الدول على ضفاف الخليج ..

ـ صباح الخير يا (صلاح) !

لم يرد ، ربما لم يسمعنى من الأصل !

أخاف أن أتهم بالنميمة أو ترويج الإشاعات ، ولكن .. هذا الفتى ذو الجسم الرياضى بعضلاته المفتولة ورأسه الحليق وملابسه التى لا تزيد على (تى شيرت) ضيق جدًا وبنطال واسع جدًا ملىء بالجيوب ؛ لا يمكن إلا أن يكون ..

كلا يا (نسرين) ، إن بعض الظن إثم ..

ليس معنى مشيته البطيئة المترنحة ، وعينيه الحمراوين الناعستين ، وعدم اهتمامه أو سماعه لتحيتك ، وخروجه من المنزل كل مساء وعودته فى هذا الموعد كل صباح ، بالإضافة لتلك الرائحة التى تفوح منه أنه بالضرورة مدمن !

إنه ما زال فى الثانوية العامة ، ولو كان كذلك فهى كارثة له ولأهله الواثقين فيه ..

ها هو ذا يصعد فى طريقه إلى شقته ، لتتناسى أمره مؤقتًا ، ولتنحى فكرة إبلاغ أهله بما يربيك جانبًا كما تفعلين فى كل مرة ، فأمامك الآن رحلة صعبة تمتد لساعات طويلة فى صحبة شيطان منزلى صغير ..

أغلقت الباب ، ولم يسترح قلبى للهدوء المخيم ..

ـ (حمادة) ..

ولم يجبنى أحد ..

معنى هذا الصمت لا يريحنى أبدًا ، فالأطفال من عينة هذا الـ (حمادة) لا يعنى صمتهم إلا كارثة ؛ ربما يفوق حجمها حجم الضجيج الذى يصدرونه فى المعتاد ..

★ ★ ★

(٣)

نصف ساعة من البحث مضت دون جدوى !

شقتنا ليست بهذا الاتساع الذى توحى به الفترة الزمنية المذكورة ، وهو تفسير جيد للخوف الذى بدأ يتسرب إلى قلبى رويدًا رويدًا ..

أين أنت يا (حمادة) ؟!

ـ (حمادة) .. (حماداااا) !

فى كل زاوية من الشقة فتشت .. الصالة ، غرفة الصالون ، المطبخ ، دورة المياه ، غرفة نومى وغرفة نوم أبى ، الدهليز القصير الواصل بينهما ، الشرفة الواسعة التى لم أفتحها منذ ليلة أمس ، كدت حتى أن أفتش فى الصندرة التى تقبع أعلى نهاية الدهليز القصير بارتفاع مترين تقريبًا عن الأرض ، لكن .. كيف يمكن أن يصعد إليها ، وهى بهذا العلو ؟! أنا شخصيًا لم تمتد إليها يدى طوال عمرى .. كلا ، لا يمكن أن يكون هذا هو مكانه ..

لكن .. أين إذن ؟!

رباه ، أين هذا الصغير اللعين ؟!

هل يمكن أن يكون قد تلاشى هكذا دون سبب ، أم أنه غافلنى وأنا أودع أباه و ... ؟!

يعجز عقلى عن تصور ما يمكن أن يكون قد حدث ، والخوف يزيد عقلى شللاً ..

ترى هل ... ؟!

وسمعت ذلك الضجيج الخافت فجأة ، ليطمئن قلبى المفزوع ..

بخطوات خفيفة اقتربت من صوان الملابس ـ مصدر الضجيج الخافت ـ القابع فى ركن حجرتى ، وفتحت واحدًا من مصراعيه بمنتهى السرعة والحسم ، و ...

ها هو ذا السيد (حمادة) ابن عمى المبجل قابع فى داخل الصوان بين ملابسى المعلقة ، متكوم على نفسه كفأر فى جحر ، وعلى شفتيه ابتسامته البلهاء الدائمة ..

وبمجرد أن رآنى ، تحولت ابتسامته البلهاء هذه إلى ضحكة أكثر بلاهة جعلتنى أتميز من الغيظ ..

ـ لقد وجدتنى إذن !

قالها ، وعاد ينفجر مقهقهًا ..

لو أنجبت يومًا طفلاً كهذا ، فربما شنقته وعلقته فى ثريا الصالون !

لكن ، لامفر الآن من محاولة التعامل بقليل من السياسة ، ولنر مدى صدق مقولة (أرسطو) الخالدة ..

أخرجته من الصوان بمنتهى اللطف ، مخفية رغبتى فى ضربه حتى الموت تحت قناع مبتسم حنون ، وجثوت أمامه على ركبتىَ متظاهرة بهندمة ملابسه ، قائلة :

ـ (حمادة) ، أنت ولد مهذب ورائع .. أليس كذلك ؟!

اهتز (حمادة) بين يدى كقطعة من الجيلى ، وهز رأسه وهو يتأتئ نفيًا !

لا بأس ، ساعدنى يا (أرسطو) !

ـ ما رأيك فى أن تأخذ هذه ؟!

سألته وأنا أمد يدى له بقطع ملونة مغلقة ، أعرف أن الأطفال دائمًا ضعفاء أمام هذا الابتكار الإنسانى الخطير .. الشيكولاتة ، لهذا جعلت عم (خضر) البواب يشترى لى بعضًا منها قبل أن يحضر عمى ..

لم أكن أعلم أن (حمادة) سيضطرنى بالطبع للجوء إلى مساومته بهذه الطريقة ، لكن ليدلنى أحد منكم على خيار آخر !

ـ حسن ..

هتف بها (حمادة) فى جشع اتسعت له عيناه السوداوان ، ومد يده مأخوذًا لكنى أبعدت يدى على الفور ، وتأتأت ثم قلت بابتسامة ظافرة :

ـ سأعطيك إياها كلها ، بشرط ..

عقد حاجبيه الصغيرين فى ضيق وتساؤل .. يبدو أن (أرسطو) كان محقًا ، وأن (حمادة) يمتلك عقلية تفاوضية مبكرة !

ـ ماذا ؟!

قلت وبسمتى تتسع :

ـ سأتركك عند صديقة لى بعض الوقت .. ستكون طفلاً مهذبًا ورائعًا .. اتفقنا ؟!

وتركته يفكر فى الاتفاق ؛ بعقله الذى لم يتجاوز من العمر خمس سنين !

نظرت فى ساعة الحائط ، الساعة تقترب من العاشرة ، ولدى (سكشن) فى غاية الأهمية يبدأ بعد ساعة واحدة ، للأسف لن أستطيع التغيب عنه بسبب نسبة الغياب المسموح بها ، والتى أنهيتها عن آخرها ..

عذرًا يا عمى ، لا أظنك تقبل لى بالرسوب فى هذه المادة ، أما عن (حمادة) فأنا واثقة من أن (نهى) سوف تعتنى به مؤقتًا على وجه مقبول !

ـ نعم .. هاتها إذن !

هتف بها (حمادة) وهو يمد ذراعه عن آخرها فى اتجاه القطع الملونة ، وقد أتت الأخيرة بنتائج فاقت توقعاتى ، لكن لم أكُ واثقة تمامًا ، والاحتياط واجب مع أمثال طفل كهذا ..

ـ ليس كلها ، سأعطيك واحدة فقط .. والباقى عندما أعود ..

وأعطيته واحدة ، فشعرت بأنه يكاد يطير من الفرح ..

ـ هيا بنا ..

جذبته من يده خلفى ، بينما بدأ هو فى التهام غنيمته دون تأخر ..

تركت باب شقتنا مواربًا ، وسرت خطوات قليلة حتى توقفت أمام باب شقة (نهى) المقابل لنا تمامًا ..

(نهى) طبيبة شابة تعرفت عليها بحكم الجوار منذ بضعة أعوام ، تبادلنا الزيارات ، لكن لم تنشأ بيننا صداقة قوية ، إذ انشغل كل منا فى عالمه ، لكنى أعرف عنها أن أصولها تعود إلى ريف (بنها) وأنها كانت تقيم مع أمها بعد وفاة أبيها فى أثناء دراستها الطبية فى (القاهرة) ، وهى على ما يبدو لا أشقاء لها ولا أقرباء ، وقد أصبحت تقيم بمفردها تمامًا بعد وفاة أمها منذ عام تقريبًا ، أذكر هذا جيدًا لأنى حضرت العزاء ، وقلما أحضر مناسبات كهذه فى المعتاد ..

صحيح أننى لم أرها منذ مدة تمتد إلى أسابيع ، لكن (الناس لبعضها) ، وصحيح أننى قد أزعجها فى وقت كهذا ، لكنها لايجب أن تنسى أنها قد أزعجتنى من قبل مرارًا ، عندما كانت تطرق بابى بعد منتصف الليل لتطلب منى أن أتوسط لها عند أبى لحضور عدد من العمليات الدقيقة فى مستشفاه غدًا ، أو لعمل دراسات ميدانية على مرضاه ، أو لتمضية شهرين من فترة امتيازها التدريبية الإجبارية تحت إشرافه ، أو للحصول على دعوة للمؤتمر الذى يرأسه فى فندق (الشيراتون) على ضفاف النيل ..

إن لم ترد أن تسدى لى خدمة ، لترد لى جميلاً على الأقل !

ذوقها (الباروكى)(*) ما زال واضحًا ، لم أنتبه من قبل لرأس الثور المعدنى هذا الذى ثبتته أعلى الباب ، والذى ينبع من فمه مقبض للطرق ..

يا للبدائية ، لم اخترعوا الأجراس الكهربائية إذن ؟!

ضغطت زر الجرس المنقوش بنفس الطراز ، كأننى عدت للقرن السابع عشر ، ليفاجئنى صوت عال لموسيقى أوبرالية مفزعة ، جعلتنى ، أنتفض ، فى حين ضحك (حمادة) حتى كادت الشيكولاتة تتساقط من شدقه المملوء !

حتى الجرس ؟!

ليكن ما يكون ؛ لكنى لن أتركها قبل أن تفتح الباب ..

وضغطت الزر ، وضغطته ، وضغطته ، وتكررت الموسيقى الأوبرالية ، وتكررت ، وتكررت ، وقهقه (حمادة) ، وقهقه ، وقهقه !

(★) الباروك : طراز من العمارة والزخرفة يتسم بالفخامة والبذخ والتحرر من القواعد الاتباعية ، ويتميز على الجملة بدقة الزخرفة وغرابتها أحيانًا وباصطناع الأشكال المنحرفة أو الملتوية .. ظهر فى (إيطاليا) فى أواخر القرن السادس عشر كرد فعل مضاد للكلاسيكية ، ثم بلغ ذروته بعد قرن فى أوروبا ، لكن نهضة الكلاسيكية فى القرن الثامن عشر اقتلعته من جذوره ..

وطال الانتظار دون أن يفتح أحد ..

هل تكون قد ذهبت للعمل ؟!

مبلغ علمى ـ هكذا أخبرتنى بنفسها ـ أنها لاتتسلم إلا نوبتجيات الظهيرة ، فهى تخشى العمل ليلا ؛ ولا تستيقظ إلا متأخرًا ..

لعلها كسرت القاعدة اليوم ..

ضغطت الجرس للمرة الأخيرة ، وبدأت أجرّ (حمادة) خلفى إلى المنزل بعد أن فشلت الخطة ، يبدو أنه قد قدّر علىّ أن أرسب فى هذه المادة !

وانفتح الباب فجأة مع خفوت الموسيقى الفظيعة ..

لم ينفتح كليًا ، سلسلة جدارية عاقته عن أن ينفتح ، وأفزعنى صوت توقفه المفاجئ حتى إننى شهقت وأنا أستدير إليه ، لأرى عينا ترمقنى فى غضب من خلال المسافة الصغيرة بين الباب وحافته !

وتذكرت أن (نهى) تضع خلف بابها سلسلة من هذا النوع ، بالإضافة لترسانة من الأقفال والترابيس ، فهى تعيش بمفردها كما أسلفت ..

ـ من ؟!

هذا صوتها ، أعرفه جيدًا ، لكن .. لماذا لم تنظر قبلها من العين السحرية ؟!

ـ صباح الخير يا (نهى) ..

قلتها وأنا أكسو لهجتى بما استطعت من الود ..

ـ .. أنا (نسرين) .. (نسرين الجبالى) !

لم ترد ، وظلت ترمقنى بعين الغضب الحمراء ، فتنحنحت وقلت من باب الأخلاق الحميدة :

ـ .. آسفة إن كنت أيقظتك من النوم ، ولكن ..

قاطعنى صوت نزعها للسلسلة فجأة ، وانفتح الباب مصدرًا صريرًا مزعجًا للغاية ..

ووقفت (نهى) أمامى بعينين خضراوين منتفختين ، ووجه شاحب ، مرتدية مبذلة لها حبل مربوط فوق الخصر ، وطرحة تغطى نصف شعرها الخشن ، كأنها تخبرنى بأن لا أهلاً بى ولاسهلاً !

ـ أهلاً وسهلاً !

قالتها فى جمود ، ولم أكن أريد الرسوب فداءً لكرامتى المهدرة ..

ـ كيف حالك يا عزيزتى ؟! لم أرك منذ مدة ..

قلتها مستنزفة مخزونى الاستراتيجى كله تقريبًا من الود ، ومن الكرامة ، فقالت هى وقد تحول الجمود إلى برود :

ـ مشغولة ببعض الأمور ، لا عليك !

وأشاحت بيدها كأنها تطردنى ، ثم نظرت إلى (حمادة) وقد هداها ذكاؤها فى الغالب إلى الغرض من الزيارة ..

تبًا لك ، إنك حتى لم تدعنى للدخول ، لو لم أكن مضطرة لما ترددت للحظة فى أن ألكمكِ فى أنفك !

أخفيت مشاعرى هذه بصعوبة ، وقررت هذه المرة أن ألجأ لمخزونى الاستراتيجى من السماجة ، وهو لعمرى مخزون وفير !

سألتها مبتسمة :

ـ هل سنتكلم هكذا أمام الباب ؟!

نظرتْ فى وجهى وقد أدركت ما أعنيه ، ولمحتُ على وجهها أقصى أمارات الضيق والتأفف وهى تفسح لى مجالاً للدخول قائلة :

ـ كلا بالطبع ، تفضلى !

وتفضلت بكل شمم ، دون أن أترك (حمادة) يفلت من يدى ، وقابلتنى رائحة بخور نفاذة فور دخولى ، نفاذة إلى درجة أصابتنى بالدوار ..

أغلقت (نهى) الباب ، ووقفت تنتظر أن أتحدث ، لكنها رأتنى فى حالة تشبه الذهول ، وعيناى تجولان فى أنحاء الصالة ..

دعكم من الذوق (الباروكى) المستفز فى الديكور والأثاث ، لقد أتيت هنا من قبل وليس هذا جديدًا علىَ ، ثم إن الذوق المذكور ليس مدعاة للذهول بأى حال من الأحوال ، خاصة حين تكون الديكورات والمقتنيات نسخًا مقلدة غير ثمينة وغير باهظة التكلفة ..

الفوضى ؟! هذا أيضًا ليس مستبعدًا من شابة تعيش بمفردها

وتعمل فى الحقل الطبى ، وإن كان مدعاة لشىء ؛ فللرثاء لا للذهول !

ما جذب انتباهى فى البداية بعد الرائحة النفاذة ، هى تلك الجماجم !

نعم ، جماجم كثيرة متراصة فى غير نظام على رف من رفوف المكتبة الكائنة فى صدر الصالة ، ارتجف جسدى لمرآها بعيونها المجوفة المظلمة المرعبة ..

ثم .. شموع ، عشرات الشموع بعضها جديد وبعضها تم إشعال ذؤابته ، تناثرت بألوانها المختلفة فى غير نظام على الأريكة الخشبية القريبة ، وبعضها سقط فوق الأرض ذات البلاط المتسخ ، وجميعها مطفأ !

ثم .. ذلك الكتاب المجلد العتيق بغلافه المهترئ ، وأوراقه الصفراء البارزة من الحواف ، القابع مغلقًا فوق المقعد حول الطاولة المستديرة ، والمدون على كعبه بماء الذهب عبارة بخط يمكن فك طلاسمه بشىء من المجهود : (مفتاح الملك سليمان) !

ثم .. الطاولة المستديرة نفسها ، التى تراصت حولها أربعة مقاعد ، والمغطى ستطحها بمتلاءة سرير ، ربما (نهى)

ما جذب انتباهى فى البداية بعد الرائحة النفاذة ، هى تلك الجماجم ! .. نعم ، جماجم كثيرة متراصة فى غير نظام على رف من رفوف المكتبة الكائنة ..

فعلت هذا قبل أن تفتح إذ لم ترد أن أرى ما كانت تفعل ..

ثم ..

ـ هل أعد لك كوبًا من الشاى ؟!

قالتها (نهى) وهى تدنو منى ، وبالطبع يمكن استنتاج اللهجة التى قيلت بها هذه الدعوة الميمونة ..

أفقت من ذهولى ، ونظرت لها نظرة طالت ، قبل أن أستعيد رباطة جأشى وأقول متناسية كل هذه الإثارة من حولى :

ـ شكرًا ، لقد تناولت إفطارى بالفعل ..

ورأيت فى عينيها تساؤلاً : (أى ريح خبيثة ألقت بك إذن ؟!) ؛ فسارعت أجيب قبل أن تترجمه إلى كلام منطوق قد يكون جارحًا لكرامتى المجروحة أصلاً :

ـ فى الحقيقة ، جئت أطلب منك خدمة صغيرة !

ما زال (حمادة) يلتهم الشيكولاتة ، ما زال هادئًا إذن !

ـ بالطبع !

قالتها على مضض بعد صمت لحظى كدت فيه أتلاشى حرجًا ، لم أكن لأتورع عن قتلها لو كانت الإجابة بالرفض !

داعبت بأصابعى شعر (حمادة)، وقلت ناظرة إليه فى أمومة كاذبة :

ـ سأترك (حمادة) ابن عمى فى رعايتك لمدة ساعتين فقط ، ثم أعود لآخذه !

تنهدت ،ونظرت فى الأرض قليلاً ،وتلاعبت بأعصابى المحطمة فى سادية ، قبل أن تسألنى عاقدة ساعديها أمام صدرها :

ـ ساعتان فقط ؟!

أخذت السؤال على المحمل الطيب ـ برغم أنه لم يكن كذلك ! ـ وقلت فى حماسة كأننى أتعلق بموافقة لم تصدر منها :

ـ نعم ، لدى (سكشن) مهم فى الكلية .. هى خدمة لن أنساها لك ما حييت !

فى الأمثال الشعبية يطلقون على تصرفى هذا مثلاً لا أذكره وإن كنت أذكر تعلقه بالكلب والسيادة ، ثم إنى ضغطت على لفظة (خدمة) لأذكرها بما أسديته لها فى الماضى ، علها تتذكر !

زفرت صهدًا صيفيًا ، وعادت تتلاعب بأعصابى ناظرة هذه المرة إلى سطح المنضدة المغطى ، حتى مطت شفتيها متحسرة فى النهاية لتقول :

ـ لا بأس ..

وكان هذا أفضل ما يمكن توقعه منها فى ظرف كهذا !

ـ أشكرك بشدة ، ستجدين (حمادة) قمة فى اللطف والتهذيب .. أليس كذلك ؟!

وجهت سؤالى لـ (حمادة) ولم يجبنى ، ربما لم يسمعنى أساسًا فى غمار انهماكه فيما يلتهم ، ثم رفعت رأسى نحو (نهى) المكفهرة متممة كأنه أجابنى :

ـ .. هل رأيت ؟!

كاد وجهها الشاحب ـ الذى عرفت بعض الحمرة الوردية طريقها إليه ـ ينفجر وهى تقول :

ـ سأجلسه فى غرفة نومى وأشغل له التلفاز على قناة الكارتون .. حاولى ألا تتأخرى .. رجاءً !

ـ أعدك ألا أفعل !

تسلمت يد (حمادة) من يدى ووجهها يأخذ سمتًا أكثر اسودادًا ، ولاحظت جرحًا قطعيًا ملتئمًا بطول إبهام يدها اليسرى ..

أعرف أنى قوية الملاحظة ، وما لى فى هذا حيلة !

ـ كن ولدًا طيبًا يا (حمادة) ، استأذنك يا عزيزتى ..

وغادرت مسرعة نحو الباب كأنما أهرب ، ورغبة قوية تغمرنى بأن تنشق الأرض وتبتلعنى !

لكن ، وإتمامًا لما ذكرت من قوة ملاحظتى ، رأيت تلك العلبة الكرتونية العريضة والفارغة تبرز خارج علبة القمامة الماثلة إلى جوار الباب ..

ورأيت جيدًا الكلمة اللاتينية الكبيرة المكتوبة فوقها ، وخلفها رسم مميز أعرفه ..

(ويجا) ..

هكذا إذن ؟!

لقد عرفت ما تصنع (نهى) ، وما تحاول أن تخبئ تحت الملاءة ، وليس لقوة الملاحظة هنا أدنى علاقة !

* * *

(٤)

(ويجا) كلمة بلا أصل معروف ، هناك من يدعى أنها اللفظة الفرعونية لتعبير معناه (الحظ الحسن) ، وهناك من يقول إنها كلمة مكونة من شقين ؛ (وى) وهى كلمة (نعم) فى قاموس الفرنسية و (جا) وهى أيضًا كلمة (نعم) لكن فى القاموس الألمانى ، وهناك عدد من الادعاءات الأخرى ضاع بينها الأصل الحقيقى للكلمة !

الـ (ويجا) لوح يباع فى محال الألعاب العادية بأسعار فى المتناول ، تملك حقوق توزيعه عالميًا شركة (باركر إخوان) الأمريكية ، ويحتل هذا اللوح ثانى أعلى مبيعات ألعاب الألواح عالميًا بعد اللعبة الأشهر (احتكار) أو (مونوبولى) والتى تعرف لدينا باسم (بنك الحظ) ، وإذا كانت اللعبة الأخيرة تعتمد على مهارات البيع والشراء والمنافسة المالية والعقارية ، فإن الـ (ويجا) هى لعبة تحضير أرواح !!!

لاخطأ فى العبارة ولاسخرية ولامبالغة ، إنها كذلك بالفعل ..

إنها عبارة عن لوح تتراص فوقه حروف الهجاء اللاتينية فى صفين مقوسين بالمنتصف ، أسفلهما وفى صف واحد مستطيل تتراص الأرقام العربية (اللاتينية كخطأ شائع !)

من الصفر إلى التسعة ، وفى الطرفين العلويين للوح هناك كلمتا (نعم) و (لا) ، وفى القاع كلمة (إلى اللقاء) .. هذا هو التصميم الأشهر والأكثر شيوعًا للوح والذى أرساه (وليام فالد) عام ١٨٩٠ فى (بالتيمور) ، هناك تصميمات أخرى لاتخرج عن هذا الإطار العام إلا فى بعض التفاصيل الضئيلة ..

هناك جزء آخر مهم من اللعبة ، المؤشر أو البلانشيت ، وهو عبارة عن لوحة خشبية أو معدنية صغيرة قائمة على عجلتين ، ابتكرها أولا رجل فرنسى يحمل الاسم (بلانشيت) ، وكانت فى البداية مزودة بقلم عمودى ، يضعونها فوق ورق أبيض ، ويمسك رجلان بطرفيها فى جلسة تحضير الأرواح ، ويتركان لها العنان فتكتب الروح الحاضرة ـ كما يعتقدون ـ أو ترسم إجابات لما يسألونها عنه ، ويتم التحاور بهذه الطريقة ..

وابتعادًا عن الغموض فى فك طلاسم الكتابة أو الرسوم التى يخطها القلم ، تم إضافة البلانشيت إلى لوح (الويجا) ، على أن تستخدم الروح الحاضرة الحروف والأرقام والكلمات المطبوعة فوق اللوح الخشبى للتحاور ، عوضًا عن القلم ..

طبعًا لم أكن أعلم كل ما سبق وقتها ، لكنى كنت أعرف اللوح واستخداماته من خلال فيلم سينمائى شاهدته ، وبالتالى خلصت إلى نتيجة زادتنى ذهولا ..

(نهى) تمارس هذا النشاط وحدها فى المنزل !

لعل هذا إذن هو سر الشموع والجماجم والكتاب العتيق والطاولة المستديرة المغطاة ورائحة البخور النفاذة !

هل تحاول تحضير روح أمها ، أم أبيها ، أم (أبقراط) أبو الطب شخصيًا ؟!

* * *

تسألوننى : هل تصدقين هذه الأشياء يا (نسرين) ؟!

أجيب بكل رزانة : لا أفتى فيما لا أعرف ..

تسألوننى : لم تهربين من الإجابة ؟!

أجيب بكل تعقل : لأننى لا أحب أن أفتى فيما لا أعرف ..

تسألوننى : و (حمادة) ؟!

أجيب بكل ثقة : (حمادة) عفريت ، لاتخشوا عليه واخشوا على الأرواح منه !

* * *

انتهى (السكشن) مبكرًا عن موعده بربع ساعة ..

هى فرصة جيدة لقضاء بعض الوقت فى الكافيتيريا مع (رحاب) و(مروة) و(شيماء رويتر) ، قبل العودة لجحيم المنزل والمذاكرة و (حمادة) !

ـ هل أنهيت ما نويت مذاكرته البارحة ؟

سألتنى (رحاب) وهى تضع حقيبتها فوق منضدة بزاوية الكافيتيريا ، فأجبتها وأنا أجلس ، وأعدّل من وضع منظارى الطبى فوق أنفى :

ـ كلا ، ليس بمقدار الربع حتى !

تكلمتُ فى أسى وضيق ، فابتسمت (شيماء) ورمقتنى بنظرة ماكرة ثم قالت :

ـ (نسرين) وعادتها فى التصنع والمداراة !

ـ صدقتنى ، هذا ما حدث ..

وشرعت أروى لهن قصة عمى وزيارته المبكرة ومأساة (حمادة) و (نهى) و ... و ...

وبصراحة مطلقة ، كنت بالفعل أتصنع وأدارى !

قبل أن ألمح فى عيونكم هذه النظرات .. مهلاً ..

ومن أدراتى أنهن سوف تقلن الحقيقة بكل أمانة إذا ماكنت أنا السائلة ؟!

من أدراتى أنهن لاتسألن إلا لتعرفن ما أنجزته ، ثم تعلن سرًا بجد وكد للتفوق علىّ ؛ بمذاكرة ما لم أذاكره ؟!

كلنا نفعل ذلك بلا استثناء ؛ ومن كان منكم فى هذه الأمور لايتصنع ولايدارى فليرجمنى بألف ألف حجر ، حتى الموت !

ـ سأدعوكن على مشروب مثلج اليوم ..

قلتها مغيرة دفة الحديث الذى أمقته ، أتيت هنا للتغيير لا للحديث فى الدراسة والمذاكرة ..

ـ خيرًا إن شاء اللّه !

قالتها (مروة) فى دعابة وقور ، بينما تألقت عينا (شيماء) وهى تسألنى فى دعابة فجة :

ـ هل ورثت المستشفى أخيرًا أم ماذا ؟!

وقالت (رحاب) بدورها ، حتى لايفوتها قطار الاستظراف السريع :

ـ أم لعلها ثروة عمك ـ رحمه اللّه ـ المقيم فى (البرازيل) ..

ـ ظريفات حقًا !

قلتها مستسخفة ، ونهضت متابعة :

ـ .. كل مافى الأمر أننى قد تسلمت مكافأة التحقيق الأخير ..

قفزت (شيماء) من فوق مقعدتها مثل (فرقع لوز) ، وهتفت :

ـ فى هذه الحالة سوف أصحبك شخصيًا ..

رفعت سبابتى وقلت محذرة :

ـ لكل منكن مشروب واحد فقط ، إنهم لايعطوننى الملايين فى الجريدة ..

ـ على الأقل تكتبين بمقابل ..

ـ لا جعل اللّه لنا جارًا بعينين !

وسرت مع (شيماء) حتى توقفنا أمام البائع ، طلبت منه علب الشراب المثلج ، ولفتت نظرى الفتاة الواقفة بجوارى فى انتظار من يلبى طلبها ..

بيضاء جدًا ، كأنها كانت تسبح لتوها فى بحر من القشدة الصافية ، وقد زادت ملابسها السوداء والمنظار الشمسى الداكن الذى يخفى عينيها من وضوح هذا البياض الرهيب ..

ـ تفضلى ..

ناولها البائع كوبًا من (الكركديه) الأحمل القانى كالدم ، فنقدته حسابه ومضت دون أن تنطق بكلمة ، وعلى الفور بدأت (شيماء) فى التحول إلى (رويتر) :

ـ أتعرفين من هذه ؟!

قلت وأنا أتناول وأناولها علب الشراب من البائع :

ـ بالطبع لا ...

وفى طريق العودة إلى المنضدة لم تبخل علىّ (شيماء) بما تعرفه ، وما لايهمنى معرفته :

ـ اسمها (جميلة) ، (جميلة عباس) على ما أتذكر ، طالبة فى الفرقة الدراسية الأولى ، وهناك هالة من الأقاويل الكثيرة والمرعبة حولها ! يقولون إن أفراد أسرتها كلهم ؛ أب وأم وأخ أصغر قد ماتوا بعد شهور قليلة من دخولها للكلية .. هناك من يقول إنه حادث سيارة ، ومن يقول إنهم غرقوا معًا فى رحلة بحرية ، ومن يقول إن حريقًا شب فى القصر الريفى المقام فى قلب العزبة التى يمتلكونها بـ (المنصورية) .. لاشىء مؤكد فى هذه النقطة البتة ، لكن المؤكد أنهم ذهبوا تاركين لها وحدها ثروة مهولة تقدر بالملايين .. أعلم أنك تتساءلين بينك وبين نفسك : لماذا لايظهر عليها آثار هذه الثروة المبالغ فيها ؟! ، لديك حق ولكن .. ومالت علىّ ليتحول حديثها إلى الهمس :

ـ .. يقال إن واحدًا من أقربائها قد استولى على الثروة بطريق غير مشروع ، وبغير وجه حق ، ويتردد الهمس الكثير أيضًا بين الطلبة بشأن الأصوات الرهيبة والمفزعة التى تصدر من مسكنها فى (مدينة نصر) ليلاً ..

سألتها بدهشة :

ـ أى أصوات ؟!

هزت كتفيها وهى تجيب ببساطة :

ـ لا أدرى ، أصوات لا أحد يدرى كنهها ، الخبر غير مؤكد لكنك تعرفين ولع الطلبة بالشائعات ؛ خاصة من هذا النوع اللامعقول .. ربما لهذا يتحاشى الجميع الاقتراب منها والتعامل معها ، وهى بدورها تظهر قليلاً وتتحاشى الجميع ..

عدنا للمنضدة وقد نجحت قصة (شيماء) الغريبة فى الاستحواذ على جزء من تفكيرى !

لا علاقة لى بتاتًا بهذه القصة ، ولكن ..

لماذا يبدو هذا النهار منذ بدايته غريبًا وكئيبًا ؟!

* * *

حاملة وجبتين من الدجاج الأمريكى الشهير هبطت من سيارة الأجرة ، نسيت أن أخبركم أن هذا هو طعامى المعتاد ، فلست من هواة المطبخ على الإطلاق ، خاصة عندما يتعلق الأمر بوجبة رئيسية كالغداء ..

ستكون هذه الوجبة وسيلة تأثير إيجابية أخرى على (حمادة) حتى يعود والده ..

ترى ، كيف أمضى وقته مع (نهى) المهووسة بتحضير الأرواح ؟!

ترى هل تصرف كطفل وديع ومسالم .... ؟!

ما هذا ؟!

أليس الجالس هناك على المصطبة الخالدة بجوار مدخل البناية هو العم (خضر) البواب ؟!

بلى ، إنه هو ..

مصطجع كأنه أمير الزمان ، يدخن النارجيلة بمنتهى الشمم والكبرياء ، ويلقى بنظرات مختالة على الداخلين والخارجين دون أن يحرك ساكنًا ، (البيه البواب) حقًا !

إلى هذا الحد والأمر معتاد وبسيط ..

لكن .. هل يجلس (حمادة) بجواره ، أو أن فى الأمر نوع من الخداع البصرى ؟!

هرولت عاقدة حاجبىَ وممعنة النظر .. أجل ، هو (حمادة) بشحمه ولحمه وملابسه التى غيرها فى المنزل منذ سويعات ، ينظر إلى النارجيلة فى صمت وهيام كأنه يمنى نفسه بتجربتها !

ـ عم (خضر) .. أتعرف من هذا ؟!

فى ترفع أشار العم (خضر) بذراع النارجيلة الطويل ، قائلاً :

ـ ومن أين لى أن أعرف ؟! إنها مصائب تقذف فى وجوهنا والسلام !

رآنى (حمادة) فأفاق أخيرًا من شروده ، وأشار نحو النارجيلة هاتفًا :

ـ تانت (نسرين) .. ما هذه ؟!

سألنى العم (خضر) كأنه (كولومبو) :

ـ أيعرفك ؟!

سحبت (حمادة) من يده وأنا أخاطب العم (خضر) بقولى :

ـ لا عليك ، إنه ابن عمى !

ثم ولجت مدخل البناية جاذبة خلفى الصغير الذى هتف فى إلحاح :

ـ ما هذه ؟! أريد مثلها .. أريد مثلها !

يا للتشرد !

لكن هناك ما هو أهم الآن من رغبة السيد (حمادة) فى أن يصبح مدخنًا !

ـ قل لى ، هل طردتك (نهى) أم ماذا ؟!

سألته فى صرامة ونحن نصعد فى درجات السلم ، فاستعاد حسه المشاغب فى لحظة أو أقل ..

ـ صديقتك الحمقاء ؟! كلا ، لقد مللت الكارتون فغافلتها وتسللت من الباب إلى الخارج !

وضحك فى جذل قبل أن يضيف كأنه فتح (عكا) :

ـ هذا كل ما هنالك !

كان من الممكن أن تحدث كارثة إذن لولا أن الله سلم .. فكرت فى أن أطرق بابها قبل العودة للمنزل ؛ لأوبخها بأقذع ما قد تسمعه من مخلوق طوال حياتها ، وربما تماديت فصعّدت الأمر إلى عراك بالأيدى تنفيسًا للكبت الذى أعانيه ، لكن ..

ـ أين باقى قطع الشيكولاته ؟! ألن تعطها لى كما وعدتنى ؟!

.. ليس الآن .. فيما بعد سأجد وسيلة مثلى للانتقام ..

فيما بعد ..

★ ★ ★

(٥)

تناولت الغذاء بصحبة (حمادة) وشعرت بعدها بثقل فى رأسى وجفونى التى احمرت بفعل قلة النوم ، شربت كوبًا من الشاى وجلست فوق مقعد أبى الهزاز أشاهد برنامجًا مثيرًا تبثه محطتى الفضائية العربية المفضلة للأخبار ..

عقدتُ قبلها اتفاقًا مع (حمادة) ونحن نأكل الشيكولاتة : أن يظل هادئًا حتى أجلب له علبة كبيرة مملوءة بأصناف لايتخيلها من الحلوى ، كنت أعرف أنه سينكث الاتفاق فى أول فرصة تسنح له بذلك لكن ماذا بوسعى أن أفعل أفضل من هذا ؟!

إنه فى غرفتى الآن يتسلى بالقفز فوق حشية سريرى الإسفنجية ، المهم أن التجربة علمتنى فضيلة إغلاق الباب جيدًا حتى لانضطر لنشر صورة (حمادة) على قمة عمود المفقودين فى صحف الغد الصباحية ..

الساعة الآن قد جاوزت الثالثة عصرًا بقليل ..

لن يهاتفنى (هشام) اليوم بعد عودته من العمل كما يفعل يوميًا ، أفتقده بشدة ولو حتى على سبيل الاعتياد !

أبى يصر على أن يجعلنى أفقد الأمل فى عودته أو حتى سؤاله بالهاتف !

عمى لم يتصل كأنه قد سعد أخيرًا بالتخلص من وحيده !

البرنامج مثير ككل حلقاته السابقة ، ضيفان يجلسان متقابلين وبينهما المذيع الشهير الهادئ ، وكل منهما يكيل للآخر الكلمات كأنها لكمات ، الأصوات تعلو والنقاش يحتد ويكاد كل منهما أن يقفز متعلقًا فى رقبة الآخر ، فلا يجد المذيع سبيلاً لتهدئة الوضع سوى استقبال مكالمة هاتفية من الجمهور ..

لكن موضوع هذه الحلقة فريد من نوعه حقًا : تحضير الأرواح !

هل هى صدفة ؟!

الإثارة بالنسبة لى مضاعفة ، فهذا الرجل الجالس على يمين المذيع ، ذو الملامح الهندسية واللهجة التى فاحت منها روائح الريف من بعيد ، بشعره الفضى غير المتناغم مع حاجبيه الأسودين الكثيفين ، والحلة الأنيقة التى تلمع تحت أضواء الاستديو ؛ هذا الرجل هو الدكتور (مشهور فراج) طبيب الأمراض النفسية والعصبية الأشهر فى العاصمة ، ورئيس

الجمعية الدولية للطب النفسى ، وصديق من أصدقاء أبى المقربين ، بحكم تقارب التخصص على الأقل ..

فهمت من حديثه أنه يتخذ جانب الضد ، أمام شاب غريب المنظر حقًا ، برأسه الحليق تمامًا على النمرة (زيرو) ، وعويناته الصغيرة المستديرة ، وجلده المشدود الذى يلمع كأنه مدهون بالورنيش ، وملابسه البسيطة التى لا يظهر منها سوى (تى ـ شيرت) أسود رسم فوقه هرم ذهبى ، وعندما صورته الكاميرا فى (كلوز أب) قرأت اسمه مكتوبًا أسفل الشاشة فى وضوح : (سامى تيمور ـ خبير فى علم الروحانيات) !

ـ سيد (سامى) ، من فضلك ، ما تعقيبك على النقطة الأخيرة التى طرحها المشاهد (ب . ع) من (الجزائر) ؟! ، يقول المشاهد العزيز إنه من أهم قواعد تحضير الأرواح أن يكون كل الجالسين فى الدائرة مؤمنين تمامًا بمصداقية ما يتم ، وأن الكثير من الجلسات يعزى فشلها إلى وجود واحد من الحاضرين غير مصدق أو غير مقتنع .. أليس هذا فى حد ذاته طعن فى مصداقية ما تدعونه ؟!

صمت المذيع ، وتكلم (سامى) .. صوته ناعم جدًا يبعث فى الأوصال الخدر ، ويلقى على الأجفان غبار النعاس السحرى :

ـ ليس المكذبين أو المتشككين فقط ، وإنما أيضًا تفشل الجلسات بسبب وجود حاضرين يحملون فى أعماقهم مشاعر كالخوف الشديد أو الكراهية الشديدة أو الحسد الشديد ..

واستخدم يديه فى التعبير متابعًا :

ـ السؤال هنا ببساطة : لماذا ؟! والإجابة أبسط من السؤال : لأن مسارات الطاقة الناجمة من هذه المشاعر تتعارض مع المسارات الروحية المطلوبة فى جلسة كهذه ، إننا نتحدث عن الاهتزازات ، والاهتزازات النابعة من المشاعر الطيبة كالحب والود والإيمان هى التى تتناغم مع حضور الأرواح ، لهذا يفضل أن تكون الإضاءة خفيفة وأن يتم تشغيل نوع من الموسيقى الناعمة الخافتة فى الـ ...

قاطعه الدكتور (مشهور) بنبرة جهورية تليق بأستاذ مخضرم :

ـ تحدث عن قابلية الإيحاء ياسيدى ، أو عن الوهم الجماعى ، أو العشرات الذين نعالجهم فى عياداتنا ومستشفياتنا ؛ ممن مروا بتجارب كهذه ؛ فتحت أبوابًا خفية فى أعماق لاوعيهم على ما لم يكونوا ليتصورونه حتى فى أبشع كوابيسهم ..

انتظر (سامى) حتى تأكد من أنه قد فرغ من كلامه ، كان واثقًا فيما يبدو أنه لن يستطيع مجاراة غول جدلىّ كهذا الجالس أمامه ، لكنه انتوى أن يبذل ما فى وسعه فقال :

ـ إننى أتحدث عن واقع عشته ولمسته بيدى يادكتور ، وليس معنى أننا لانفهم ظاهرة ما أنها محض افتراءات وخزعبلات ، هناك الكثير جدًا والمثير جدًا خلف المدى المحدود لحواسنا الخمس .. اسأل (هانن سوافر) نقيب الصحفيين البريطانى المتوفى عام ١٩٦٢ ، الذى دخل إلى ميدان البحث الروحى مصممًا على أن يزيح النقاب عن هذا الإفك الأعظم الذى كان قد استشرى فى بلاده على حد تعبيره ، وانتهى به الأمر للاقتناع الكامل بالروحية وبصحة ظواهرها ، وتأليف سفر ضخم بعنوان (قصتى العظمى) عام ١٩٤٥ روى فيه قصته مع (نورثكليف) و(سيلفر بيرش) وغيرهم ..

ابتسم الدكتور (مشهور) فيما يشبه التهكم ، وقال :

ـ دعنى أحدثك إذن ياسيدى عن منهج البحث العلمى الشهير الذى بنت عليه الأمم حضاراتها وتقدمت للأمام ، ذلك المنهج القائم على التجربة والقياس والمتابعة .. إننى أومن بوجود كثير مما أجهله في هذا الكون الشاسع المترامى الأطراف ، فأنا مؤمن والحمد لله ، لكنى أرفض أن أحيل كل الظواهر غير المفهومة لحاسة سادسة لاوجود لها ..

ـ الروحانيات علم قائم بذاته فعلاً ، دراسته تعتمد أولاً على وجود موهبة كما هو الحال فى دراسة الفنون والآداب .. ألم تفكر فى حضور جلسة كهذه من قبل يادكتور دون أن تشحذ ذهنك مسبقًا بما يهرف به أولئك المدّعون الدجالون المشعوذون ؟! ألم تفكر فى حضور تجربة التحضير بالوسيط أو بالسلة أو بلوح (الويجا) أو ... ؟!

ـ اسمح لى أقاطعك بتعقيب بسيط ما دمت قد أثرت هذه النقطة ، وأعود لما كتبه طبيب أمراض نفسية أمريكى محترم يدعى ..

وقلب الدكتور (مشهور) فى أوراق أمامه قليلاً ، ثم قال مرتديًا عويناته ومحدقًا من خلفها فى وريقة :

ـ (كارل ويكلاند) ، أنقل لك مقتطفًا من كتابه (ثلاثون عامًا بين الأموات) : إن استخدام لوح (الويجا) يؤدى إلى نوع خطير من الجنون يستلزم بالضرورة الإيداع فى مصحة علاجية .. بالمناسبة هذا الكتاب صادر فى عام ١٩٢٤ !

واستمر الحوار على هذا المنوال ، غير أنى لم أع جيدًا ما قيل بعدها إذ سقطتُ نائمة على الرغم منى ، فى جلستى المستكينة على الكرسى المهتز ببطء حنون ..

النوم ضيف لامفر من استقباله حتى لو لم نكن مستعدين !

وصحوت فجأة على رنين الهاتف ..

استغرقت بضعة لحظات كيما أفيق ، تساءلت بينى وبين نفسى كما فعل أهل الكهف : ترى كم لبثت ؟! نمت طويلاً على ما يبدو فالشمس غابت كما يتبدى من زجاج الشرفة ، والظلام فى طريقه للحلول ..

الهاتف يرن ، لكن ..

أين (حمادة) ؟!

لا أسكت اللّه له حسًا ..

ـ آلو ...

قررت أن أرد أولاً ليصمت هذا الرنين المزعج ، ثم أبحث عن ذلك العفريت الصغير الذى أتمنى ألا يكون قد صنع كارثة ما ..

ـ أيقظتك من النوم لاريب !

هذا عمى (ممدوح) ، تذكر أخيرًا أن يتصل الآن ، الساعة السابعة مساءً كما تخبرنى ساعة الحائط القريبة ذات العقارب الفسفورية ..

كلا يا عماه .. كلا ، كنت ..

وانتبهت إلى جهاز التلفاز الذى تعلو شاشته الآن الحلقة رقم تسعة بعد الستمائة من المسلسل المكسيكى المدبلج اللعين !

ـ أشاهد التلفاز ..

سألنى فى مرح :

ـ هل أتعبك (حمادة) بما فيه الكفاية ؟!

ـ اطمئن ..

وتثاءبت مردفة :

ـ الوضع تحت السيطرة الكاملة ..

لكنى لم أخبره بالطبع أننى أجهل الآن مكانه ..

ـ سأعود لأخذه بعد أقل من نصف الساعة ..

ستتناول العشاء معى إذن !

ـ كلا ، لا أريد أن أجهدك ..

ـ اطمئن ، لست ربة منزل ماهرة .. سأطلب عشاءً جاهزًا من مطعم قريب ..

ـ كان اللّه فى عون المباحث الجنائية !

ـ سأنتظرك ..

ـ لن أرفض أمام هذا الإصرار ، فلم أتناول شيئًا منذ الصباح ..

ـ لا تتأخر ..

ونهضت متكاسلة لأبحث عن السيد المبجل ، بعد أن أغلقت التلفاز الذى يعرض المسلسل المشوق جدًا !

ـ ماذا دهاك يا (أنطونيو) ؟! ستتركنى وتتزوج من (ماتويلا) !

ـ ألم يخبرك العم (ساتتياجو) بأن (فريسكا) معترضة على زواجنا منذ البداية ؟!

تأكدت من أن الباب الخارجى موصد جيدًا كما تركته ، وأن مفتاحه ما زال فوق الثلاجة فى نفس المكان الذى وضعته فيه قبل النوم ..

ما زال السيد المبجل فى المنزل كما تقول الدلائل ..

لكن .. هذا الصمت المريب ..

فى الظلام دلفت إلى حجرتى ، ضغطت زر الإنارة فرأيتها كما لم أرها فى حياتى من قبل ، مقلوبة رأسًا على عقب بكل ما تحمله حروف التعبير من معان ..

فتحت الصوان ولم أجده ..

خرجت إلى الدهليز القصير وأنرته ، أين يمكن أن يكـ ... ؟

ها .. وقعت أيها السيد المبجل هذه المرة !

لقد تركت دليلاً دامغًا على مكانك ..

الصندرة العالية فى نهاية الدهليز ، وإلا فما معنى هذا المقعد أسفل مصراعيها ، والذى وضعت فوقه وسادات كثيرة تساعدك على الوصول إليها بقامتك المتناهية فى القصر ، أيها العفريت الصغير ذو السنوات الخمس ؟!

بل ما معنى المصراعين المواربين اللذين لم تمتد لهما يدى منذ كنت فى المهد حتى اليوم ؟!

يا للفضول ، ويا للدهاء !

صعدت بقدمىّ فوق المقعد بعد أن ألقيت بالوسادات جانبًا ، فتحت مصراعى الصندرة ورأيت السيد المبجل (حمادة) جالسًا

داخلها ، منهمكًا فى ممارسة هوايته الأثيرة ـ العبث ـ بمنتهى الاستمتاع ، دون أن يخشى شيئًا من الظلام !

يا للجرأة ، ويا للمشاغبة !

ـ (حمادة) .. ماذا تفعل عندك ؟!

هتفت بها مغالبة دهشتى بصعوبة ، ونظر هو نحوى مغتبطًا ليجيبنى فى سرور :

ـ لديكم ألعاب جميلة ها هنا ..

لكن .. ما هذه الجمة الشقراء القصيرة فوق رأسه ؟!

وما هذا الشىء الأسطوانى الصغير الذى يمسك به بين يديه ؟!

بل وما هذان الصندوقان القديمان المستقران فى الصندرة وحدهما ، وسط عدد من المهملات التى يطوها غبار بكميات هائلة ؟!

يا للدهشة ، ويا للغرابة !

ـ من أين أتيت بهذه الأشياء ؟!

سألته وقد عجزت عن مغالبة دهشتى هذه المرة ، ومددت يدى منتزعة ما فى قبضته دون أن يقاومنى لأكتشف أنه ..

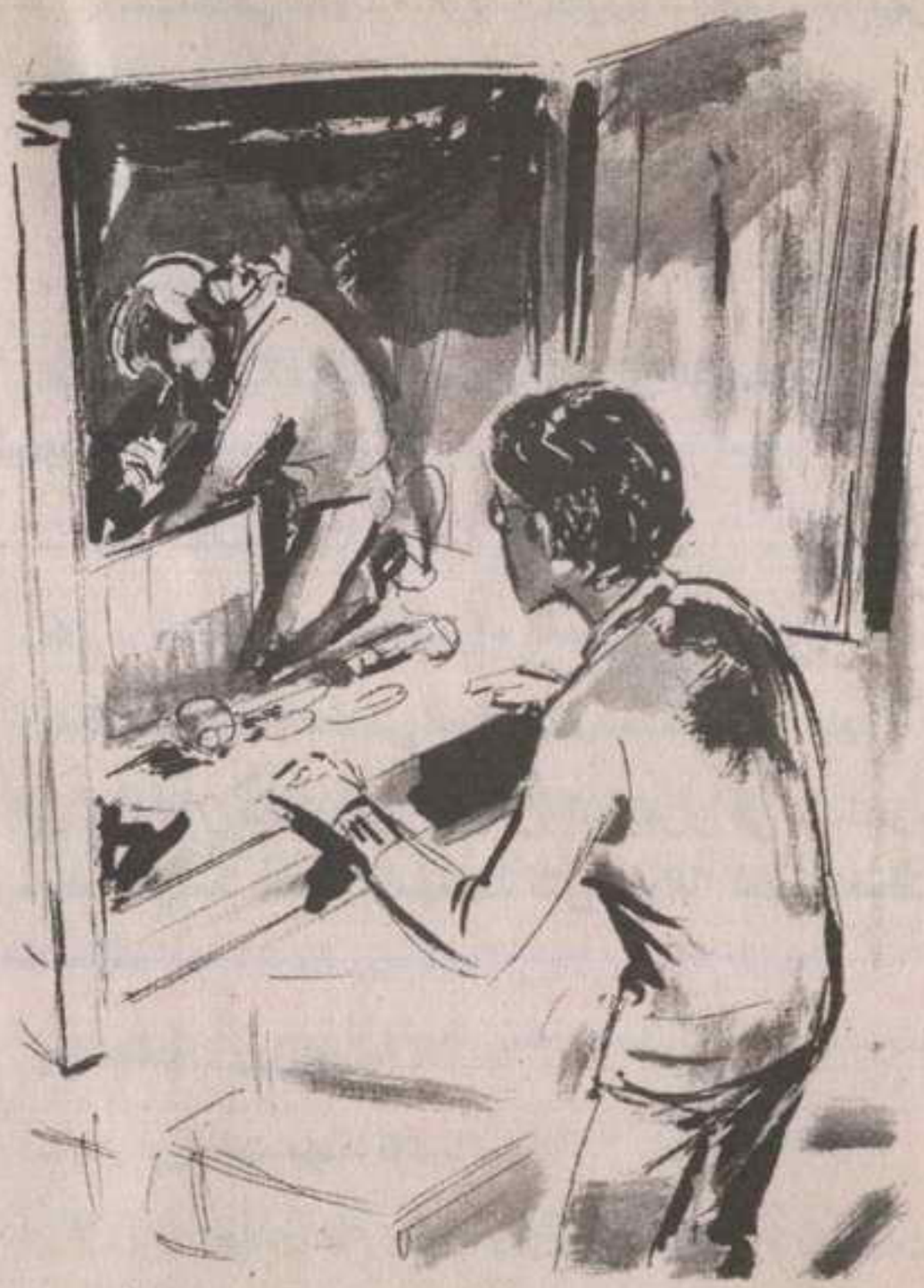

فتحت مصراعى الصندرة ورأيت السيد المبجل (حمادة) جالسًا داخلها ، منهمكًا فى ممارسة هوايته الأثيرة ـ العبث ـ بمنتهى الاستمتاع ..

ـ من هذا الصندوق ..

ـ أصبع طلاء شفاه قديم جدًا !

ـ فيه الكثير من هذا ، أحضر لك واحدة ؟!

ـ كلا ، اخلع هذا الشىء عن رأسك ، واهبط على الفور ..

صاح مستنكرًا :

ـ لماذا ، وهنا ألعاب جميلة ؟!

كنت أدرك صعوبة انتزاعه من موقعه هذا ، لكنى لم أكن فى حالة تسمح لى بممارسة أية ألاعيب سياسية ، مع الاعتذار لخالد الذكر (أرسطو) ..

لذا حملته فى عنف وسط صرخات استجداء وعناد وتملص منه ..

ـ تعال إلى هنا ..

ـ كلا ، اتركينى .. لا أريد .. لا أريد .. اتركينى ..

.. حتى سقطت معه فوق الأرض فى النهاية ، فى نفس اللحظة التى رن فيها جرس الباب ..

ـ أرأيت ؟! سأشكو لوالدك إن لم تنهض معى الآن ..

نهض على مضض ، لن أخبركم بالطبع عن القذارة التى علت وجهه وملابسه بفعل الغبار المتراكم وطلاء الشفاه ، لكن .. كل شىء قابل للإصلاح ، ولنحمد الله على أن عمى قد أحضر عددًا من الملابس النظيفة تحسبًا لطوارئ كهذه ..

بمنتهى السرعة ، ومتجاهلة جرس الباب الثانى نزعت الجمة عن رأسه ، وصعدت فوق المقعد واضعة إياها وإصبع الطلاء داخل الصندرة ، رمقت الصندوقين القابعين فى المنتصف بنظرة خاصة ذات مغزى ، ثم أغلقت المصراعين على الفور ..

أدخلت (حمادة) إلى دورة المياه ، وأشرت لحوض الاستحمام قائلة :

ـ هيا .. اخلع ملابسك وخذ حمامًا ، لا أريد لوالدك أن يراك فى هذا الشكل المزرى حتى لا يعاقبك ..

ولم أنتظر منه ردًا ، أغلقت عليه الباب وسارعت نحو الخارج ، لم ينبعث جرس ثالث كأن الطارق قد مل ، وفى نهاية الدهليز كدت اصطدم بشخص ما ، فشهقت فى فزع مهول ..

ـ من ؟!

واحتوانى أبى فى حضنه مهونًا :

ـ على رسلك .. اهدئى قليلاً ..

كان هو الطارق إذن ، وعندما لم أفتح الباب له ظننى نائمة أو خارج المنزل ففضل الدخول مستخدمًا مفتاحه الخاص ..

ـ ما بك ؟! ولم هذه الهرولة ؟!

انبعث صوت المياه السارية من دورة المياه ، مع صوت (حمادة) يغنى أغنية شعبية هابطة ، ومنعت نفسى من الضحك بصعوبة لأجيب أولاً عن التساؤل المستغرب اللائح فى عينى والدى الحبيب ، الذى عاد أخيرًا بعد طول غياب :

ـ لدينا ضيف خاص جدًا ..

ولما تحول التساؤل فى عينيه إلى تساؤلات ، رويت له ملخصًا سريعًا لما تم منذ ليلة الأمس حتى الآن ..

أهملت الجزء الخاص بالصندرة وما فيها ، أسقطته من روايتى عمدًا مع سبق الإصرار ، لابد أن أكتشف الأمر بنفسى فى وقت مناسب ..

وبرغم أن اللهفة والفضول والتشوق كادوا يقتلوننى ، إلا أنى كنت مرغمة على انتظار هذا الوقت المناسب الذى يهدأ فيه الجو قليلاً ..

فى مثل هذه الظروف يمر الوقت ببطء شديد ، فالوقت لايمر أبدًا عندما نريده أن يمر ..

عاد عمى (ممدوح) ، وكان لقاءً حميمًا واستثنائيًا بين شقيقين لم يلتقيا منذ سنوات ، طلبت العشاء بالهاتف وتناولناه فى جو دافئ معبق بروائح ندية ، حتى (حمادة) اندمج فى هذا الجو وكف عن مشاغباته قليلاً ..

وعندما حان الرحيل ، واستأذن عمى ليعود إلى (الإسماعيلية) معتذرًا عن إلحاحى وإلحاح أبى بالمبيت حتى الغد ، إذ عليه أن يكون فى عمله فى الصباح الباكر ، وبعد أن جلستُ مع والدى دقائق أقتنصُها بصعوبة من عمر الزمن البخيل ؛ دخل بعدها إلى حجرته لينال قسطًا من النوم والراحة ، وبعد أن اطمأن قلبى إلى أن أبى قد أغلق باب حجرته عليه ، عندها فقط ..

أصبح الجو خاليًا ومناسبًا أخيرًا ..

* * *

(٦)

على أطراف أصابع قدمى ، كراقصة فى (بحيرة البجع) ، سرت نحو الصندرة ..

ظهرُ مقعد من مقاعد طاولة السفرة مستقر بين قبضتىَّ ..

الدهليز مظلم إلا من بعض الضوء الآتى من داخل غرفتى ، لا أريد لأبى أن يستيقظ متسائلاً عما أفعله عند الصندرة فى مثل هذه الساعة ..

شعرت ببعض الخوف دون سبب وأنا أصعد وأفتح المصراعين بمنتهى الحرص ، حتى لا يصدر من فعلتى هذه أدنى صوت ..

لو لم أكن صحفية لكنت الآن لصة منازل موهوبة !

ها هما الصندوقان / الهدف ، مستقران فى جوف الصندرة كقطعتين من الـ (تشكلتس) فى فم حوت أزرق !

مددت يدىَ المرتعشتين من فرط الإثارة الممتزجة بالوجل نحوهما ، اخترقتُ على مايبدو نسيج عنكبوت عجوز ، قضى عمرًا مديدًا فى هذا الظلام حتى أقض (حمادة) رقاده المستكين ؛ فى جولة من جولاته الشيطانية ..

الغبار والمهملات ورائحة السنين القديمة ..

أمسكتُ بالصندوق الأول وجذبته نحوى فى حرص ، حملته على صدرى ثم أنزلته على الأرض ، وكذا فعلت مع الصندوق الثانى ، ثم حملت غنيمتى هذه ـ لم أنس الجمة الشقراء وإصبع طلاء الشفاه اللذين ألقيتهما بسرعة فى المرة السابقة ، ولم أنس كذلك إغلاق المصراعين وحمل المقعد إلى مكانه الأصلى ـ إلى داخل الغرفة ، وأوصدت بابها جيدًا وأنا ألهث ..

الآن ينكشف المستور وتظهر الحقيقة !

أخذت أنظر إلى الصندوقين المُتْربين القابعين فوق الأرض وبجوار السرير ، بعينين يكاد يقفز منهما الشغف ليتجسد فى صورة مادية مرئية ، ولم أطق صبرًا على فتحهما ورؤية ما يحوياته ، برغم أنى كنت قد كونت فكرة شبحية مسبقة عن المحتوى بالفعل ..

بدأت أفرغ ما فيهما ، فقط لتتضح الفكرة فى رأسى أكثر ، وتتأكد أكثر وأكثر ..

لقد وجدت كنزًا من المقتنيات النسائية !

فساتين قديمة قصيرة بعضها يمتد طوله إلى ما فوق الركبة فقط ، تدل الصيحات على أنها تعود للسبعينات من القرن العشرين ، واسألوا متابعة لابأس بها لأفلام تلك المرحلة السينمائية مثلى ..

ملابس منزلية مبعثرة وسط الفساتين فى غير نظام ، والغريب أن العثة تركتها سليمة برغم طبقات الغبار المتراكمة فوقها ..

أحذية وصنادل نسائية ذات صيحات وألوان غريبة تعود أيضًا للسبعينات ، هناك أيضًا جوارب نسائية وحقائب نسائية مختلفة ، وساعة يد لماركة سويسرية معروفة تصلح لكل العصور والأزمنة ..

وعن أدوات الزينة فحدث ولاحرج ، أشكال وألوان وأطوال عديدة ومختلفة من الشعر المستعار ، عشرات الأنواع من طلاء الشفاه وتحديد الرموش والعيون وبودرة الخد وكريمات الأساس وتفتيح لون البشرة ، العلب قديمة وتعود لنفس الفترة الزمنية تقريبًا ، بعضها مازال محتفظًا بحالته الأولى حتى يومنا هذا ..

لن أنسى أيضًا مشابك الشعر والأطواق وبعض قطع الإكسسوار التى تهواها نساء الأرض كلهن منذ عهد الفراعنة أو قبله ، كذلك بعض زجاجات العطور الفارغة ..

كل المقتنيات تشع برائحة إنسانية مميزة للشخص الذى يقتنيها ، ولم تكن هذه الأشياء استثناء للقاعدة .. لايزال هناك عبق شخصى لم تمحه السنون بعد بممحاتها الضخمة ..

عبق أمى ، رحمها اللّه !

كيف عرفت ؟!

لن أتحدث عن البداهة ، وإنما عن هذه الأوراق المبعثرة فى قاع الصندوق الثانى ..

قصاصة من الصفحة قبل الأخيرة لجريدة (الأهرام) ، تحمل فى وضوح نعى السيدة (سعاد خورشيد) زوجة الدكتور (فاروق الجبالى) وسليلة عائلة (خورشيد) ، يعود تاريخها إلى شهور قليلة بعد ميلادى ..

صور فوتوغرافية متناثرة ذات أحجام مختلفة ، كلها بالتدريج الرمادى ، كلها لم أرها من قبل ، كلها لأمى فى

مراحل مختلفة ، تبدأ من الثانوية تقريبًا مرورًا بالدراسة الجامعية ورحلة إلى (الفيوم) ـ هذه بحيرة (قارون) ؛ أعرفها ـ وأخرى مع أفراد عائلتها و ...

يا إلهى ، يا للمصادفات الغريبة !

انظروا إلى هذه الصورة جيدًا ، إنها عند الشلالات بـ (الفيوم) ، مجموعة من طلبة الجامعة فى رحلة ، هذه أمى فى الوسط ، دعكم من الصديقة القبيحة الباسمة إلى يمينها ، وأمعنوا النظر جيدًا فى الواقفة على اليسار ، فاردة ذراعها على كتف أمى ..

أمعنوا جيدًا ، ألم تعرفوها بعد ؟!

هى بنفسها ، صدقونى لم أخرف بعد وما زالت قوة ملاحظتى فى أوجها !

السيدة (ألفت همام) رئيسة تحرير الجريدة التى تنشر تحقيقاتى مع السيد (س) ، أصغر سنًا وأكثر نضارة وحيوية وبلامناظير دقيقة !

هل كانت صديقة لأمى فى الجامعة ؟!

كيف لم أعرف من قبل ؟!

لماذا لم يخبرنى أحد ؛ هى أو أبى ؟!

حتى متى سأظل طفلة يخفون عنها الحقائق ، حتى متى ؟!

أوراق أخرى كثيرة ، تحاليل وتقارير طبية من مستشفيات ومعامل مختلفة تكتظ بطلاسم لاتينية أعجز عن سبر أغوارها ، البطاقة الشخصية لأمى ، جواز السفر الخالى من التأشيرات تمامًا ، كل شىء قد تم تكديسه داخل الصندوقين بمنتهى السرعة والإهمال ، كأنما أريد التخلص من هذه الأشياء ، أو كأنما كان الأمر متعلقًا بـ ...

إخفاء جريمة !

عمت الفوضى أنحاء الغرفة التى كنت قد رتبتها بعدما فعله بها (حمادة) ، الأشياء تبعثرت فوق الأرض والسرير والتراب غطى كل الأنحاء ..

لكنى لم أنتبه لهذا فى غمار الفكرة التى راودتنى فجأة ..

للدقة ، الرغبة التى اجتاحتنى فجأة ..

دافع خفى وجدتنى أستجيب له على الفور دون تفكير ، ودون تردد ..

دافع أقوى منى فلم أستطع له رفضًا ..

وهكذا بدلت ملابسى المنزلية على الفور ، لأرتدى فستانًا من فساتين أمى !

مقاسه مناسب لى تمامًا ، كأنه قد صنع من أجلى خصيصًا ..

ارتديت أيضًا صندلاً ذا كعب مرتفع وضخم ، ووضعت ساعة اليد حول معصمى ، وثبتت جمة كستنائية ذات شعر طويل جدًا فوق رأسى ، ثم انتقيت عددًا من أدوات الزينة المناسبة لما أرتدى ، ووقفت أتزين أمام المرآة التى ثبتت صورة أمى فى حافتها ..

جنون ، أليس كذلك ؟!

المثير أننا دوما نمارس الجنون دون أن نشعر للحظة أنه كذلك !

مضى وقت لا أنكره وأنا منهمكة فيما أفعل ، وعندما انتهيت

وقفت أتأمل نفسى فى المرآة مقارنة مظهرى بصورة أمـى المواجهة لى ..

كانت أجمل منى ، لا أجد غضاضة فى الاعتراف بهذا ..

كانت تشع سحرًا وجاذبية غريبين ، لكن .. هل كان السر يكمن فى عينيها ؟! رموشها الطويلة ؟! ابتسامتها الكاشفة عن صفين من اللؤلؤ ؟! وجهها المنير ؟!

هو سر ، لذا فما من تفسير له !

بقيت خطوة أخيرة ، أمسكت بمشبك للشعر وغرسته فى شلال الشعر المستعار على الناحية اليمنى ، وأمسكت بمشبك آخر لأغرسه على الناحية اليسرى حتى أبدو مثل (ميرفت أمين) فى ذلك الفيلم الذى لا أذكر اسمه الآن ، لكن ...

بحركة خاطئة جرح دبوس المشبك إبهامى الأيسر ، وسال الدم فوق الشعر المستعار ..

فزعت ، وسرت كهرباء الألم داخل نخاعى الشوكى كعمود من النار ، فردت إبهامى وثنيت بقية الأصابع ، محدقة فى الأول بذهول لم أدر له مصدرًا أو مبررًا ..

الدم يتدفق من الجرح كنافورة ، يغرق يدى والفستان والساعة والحقيبة ، ويقطر فوق الصندل ذى الكعب المرتفع ..

دم غزير غزير ..

تراجعت كأنى أرى وحشًا من وحوش الفضاء ، تراجعت خطوات للخلف وأنا ألهث شهيقًا وزفيرًا ، بينما أمى ترمقنى من الصورة المثبتة فى جانب المرآة ..

كدت أستنجد بها ، أنادى باسمها ..

ـ ماما !

وواصلت التراجع ، فلم يكن هناك مفر من السقوط ..

تعثرت فى أحد الصندوقين ، وسقطت على ظهرى فاصطدم رأسى بحافة السرير الخشبية البارزة ..

وطبعًا غبت عن الوعى ، بينما استمر الجرح فى إبهامى ينزف ، وينزف ، وينزف ..

آخر ما رأيته قبل الغياب كان وجه أمى ، ينظر لى باسمًا من حافة المرآة ..

فابتسمت !

★ ★ ★

محيط الظلام الأسود ، الممتد من الأزل إلى الأزل ..

ظلام أبدى .. بكر .. دامس ..

ومظلم ..

الظلام الذى منه جئنا وإليه نعود ..

المعلقة به نجوم وسدوم ومجرات وأكوان ..

المتفانى فى نفسه ..

والسابح فى مجراه ..

كنتُ روحًا هائمة لم تضل السبيل ..

تطوى المسافات الشاسعة فى أقل من لمح البصيرة ..

فى اللازمن لو جاز التعبير* ..

لا أرى نفسى ، وإنما أشعر بها وأوقن بوجودها ..

شفافة كنسمة صيف ..

خفيفة كلا شىء ..

وسريعة كنيزك ..

بقعة ضوء تقترب ، وأقترب ..

أصبح هناك فجأة ..

أرى كل شىء ، ولا يرانى أحد ..

امرأة تصرخ وقد غطت ساقيها فوق مقعد كبير ..

تصرخ فى ألم رهيب ..

يشبه ألم المخاض ..

أو هو ألم المخاض بالفعل !

أعرفها ، لكنها أبدًا لا تعرفنى ..

الطبيب بملابس الجراحة الخضراء يقف فى ركن حجرة الولادة ، يدس يده اليسرى فى قفاز مطاطى معقم ..

ثم يثبت الكمامة على أنفه ..

ويستعد للجريمة !

أعرفه ، لكنه أبدًا لن يعرفنى ..

الممرضات تركضن هنا وهناك ، والمرأة تواصل صراخها المتألم الرهيب ..

عرق ودماء ، والسائل الأمنيونى يغرق الأرضية المبلطة باللون الأبيض ..

ـ (فاروق) .. سأموت يا (فاروق) !

الطبيب يهتف بها وهو يراجع أدواته فوق المنضدة فى هدوء :

ـ تماسكى يا (سعاد) ، لم يبق إلا القليل ..

ثم يلتفت إليها قابضًا على كلابة جراحية ، ومنها يقترب ..

ـ كلا ..

تصرخ المرأة فى سعار ، وتكاد تقفز من فوق المقعد المقيدة إليه ..

ـ ابتعد ، تريد أن تقتلنى .. ابتعد ..

يتوقف الطبيب حائرًا ، يضع راحتها على كتفها مهونًا ..

ـ اهدئى يا (سـ ..

ـ ارفع يدك عنى ، لا أريد هذا الجنين .. لا أريده !

يسقط فى يد الطبيب ، وتلوح فى عينيه نظرة حسرة ..

أو تأنيب ضمير ..

يميل عليه زميله طبيب التخدير ، الذى تلتهم السوالف وجهه :

ـ أحقنها بجرعة مخدرة أخرى ؟!

الطبيب يتنهد ، وبصعوبة يقول :

ـ كلا ، أوان الفتح القيصرى قد فات ، وقد يشكل هذا خطرًا عليها وعلى المولود .. ولا ينسى أن يضيف قبل أن يستدير إليها مجددًا :

ـ أو المولودة !

يقرر الطبيب أن يمارس عمله برغم كل شىء ، يجثو على ركبتيه أمام المقعد والمرأة تواصل صياحها الذى تهتز له الجدران الفانية :

ـ كلا .. أبعدوه عنى .. سيقتلنى .. سيقتلنى ..

وتصيح مجددًا ، ليكاد قلبى ينفطر ..

لم أبك ، فالأرواح الهائمة لاتعرف بكاءً ..

ولا تعرف ملح الدموع ..

ثم يشق المكان صراخ طفل ينزلق إلى الحياة ..

تموت الصرخات المحتضرة فى حنجرة المرأة المتعبة ، فتسقط رأسها جانبًا ..

يحمل الطبيب الجنين ، تتألق فى عينيه الغبطة وهو يضربه على ظهره ضربات خفيفة ، أشعر بها على ظهرى أنا ..

وخلف حاجز زجاجى كبير ، وقفت امرأة أخرى تراقب من خلف الخصاص المسدلة ..

أعرفها ، ولا أريد أبدًا أن تعرفنى !

(أصغر سنًا وأكثر نضارة وحيوية وبلا مناظير دقيقة !) ..

ـ طفلة ؟

قالت ، وهى تضم قبضتها على صدرها ..

ـ (نسرين) ..

همست ، فاردة أصابع يدها الأخرى على الخصاص ..

ـ سأسميها (نسرين) ..

وعاد الظلام ..

أبديًا .. بكرًا .. دامسًا ..

ومظلمًا ..

★ ★ ★

(٧)

أيقظنى رنين الهاتف الملحاح ..

نائمة كنت فى سريرى ، الغطاء موضوع فوقى بعناية ، وضوء الحجرة مطفأ ، والغرفة فى حالة غريبة من الهدوء والنظام !

كل شىء كان مبعثرًا أصبح مكدسًا داخل الصندوقين إياهما ، والصندوقان موضوعان أسفل الخوان ..

يا للغرابة !

آخر ما أذكره هو رأسى المصطدم بحافة السرير ، وأنا مرتدية ملابس أمى القديمة ؛ حتى هذه لم أعد أرتديها ، وهأنذا فى ملابسى المنزلية الأولى ، أغالب ذهولى وأحاول اعتصار ذهنى فى محاولة بائسة للتذكر ..

ماذا حدث ؟!

لا أذكر أننى نهضت وفعلت كل هذا ، برغم أن هذا هو الحل الوحيد المعقول ..

أو لنقل : المقبول ..

تبًا ، جرس الهاتف ما زال يرن فى إلحاح بجوارى ..

ـ آلو ..

رفعت السماعة وقلتها ، وجدت إبهامى الأيسر محاطًا بضمادة قماشية تشربت الدماء من الجرح الذى لم يعد يؤلمنى !

شىء ما فى صوتى استغربته ، لكنى لم ألق بالاً ..

ـ أما زلت نائمة من البارحة أيتها الكسول ؟!

ـ (فا .. ، أعنى أبى ؟!

شىء ما فى أسلوبى استغربته ، لكنى لم ألق بالاً ..

ـ أجل ، خرجت دون أن أوقظك حتى تنالى كفايتك من النوم ، يبدو أنك سهرت كثيرًا ليلة أمس ..

سمعت أبى يقولها ضاحكًا ، ولم أرد سوى بكلمة مقتضبة واحدة :

ـ يعنى !

نظرت إلى الساعة المنتصبة إلى جوار الهاتف ، إنها تشير لما بعد الثامنة صباحًا بدقائق ..

ـ ما بك يا حبيبتى ؟! أأنت على ما يرام ؟!

لابد أنه لاحظ تغيرًا ما هو الآخر ، لكن هذا ليس وقته بالمرة !

ـ أجل ، لاتخش شيئًا ..

قلتها وأنا أتثاءب ، ترى هل أصبحت رصينة أكثر من اللازم أم أن هذا يخيّل لى فقط ؟!

ـ أتمنى هذا ، فربما لن أراك قبل أسبوع من الآن ؟!

ـ ولِمَ ؟!

هل حقًا كنت غير مهتمة كما أوحت لهجتى وأنا أسأله ؟!

أشك !

ـ القائمة لدى اليوم حافلة بالعمليات الجراحية ، وفى الخامسة من فجر الغد سأستقل الطائرة المتجهة إلى (مونتريال) لحضور مؤتمر دعونى إليه اليوم فقط ..

صمت ، أدهشنى بأكثر مما أدهشه !

ـ أعلم أنك قد تغضبين منى ولكن .. لم أستطع الاعتذار ..

فى هذه الأحوال أعاتبه وأتوعده بالخصام والقطيعة إن لم أره قبل أن يسافر ، وتترقرق عيناى بالدمع المحبوس فيهما ، لكنى لم أفعل هذه المرة ..

وقد أدهشه هذا لا ريب ..

ـ لا تخف علىّ ، صحبتك السلامة !

.. لكنه أدهشنى أكثر !!

أتانى صمته عبر السماعة للحظات ، قبل أن يتنحنح مدافعًا عن نفسه من اتهام لم أوجهه إليه ، ولم أكن أفكر فى أن أفعل :

ـ لقد قبلتك فى جبهتك قبل أن أغادر المنزل منذ أقل من الساعة ، ألم تشعرى بى ؟!

هل يمكن أن يكون هو من حملنى إلى السرير ورتب الحجرة ؟!

محتمل لكنى غير مقتنعة ، لو فعل لقال الآن ، وربما لكان أيقظنى وقتها فى هلع ..

ـ كلا ، إطلاقًا !

صدمه ردى بالتأكيد كما حدث من قبل ، لم يكن يتوقع منى كل هذا البرود وعدم الاكتراث المغلفيْن بالرصانة ، ولم أكن أنا أيضًا أتوقع !

ـ ليكن أراك على خير ..

ـ إلى اللقاء ..

ـ إلى اللقاء !

وأغلقت السماعة بمنتهى الفظاظة دون حتى أن أسمع عبارته ..

ما هذا الذى يحدث لى ؟!

ليحدث ما يحدث ، فلست مهتمة ..

نظرت إلى المرآة ، ما زالت صورة أمى معلقة فى حافتها ، تنظر نحوى باستمرار أينما ذهبت ؛ كأنها (الجيوكندا) !

شىء ما فى نظراتى استغربته ، لكنى لم ألق بالاً ..

شىء ما له علاقة بالحدة ، أو الشدة ، أو الصرامة ، أو القسوة ، أو ... ، أو .. ، إلى آخر هذه المترادفات ..

نظرت إلى المرآة ، ما زالت صورة أمى معلقة فى حافتها ، تنظر نحوى باستمرار أينما ذهبت ..

قفزت من فوق السرير بنشاط جم قلما توافر فى شخصى الكسول ، فلدى يوم حافل حقًا ، لكنى توقفتُ للحظة ناظرة إلى نفسى مرة أخرى فى فضة المرآة ..

حتى ملامحى نفسها ، شىء ما فيها بدأ يتغير ، لكنى لم ألق بالاً ..

كيف ؟! وما هو هذا الشىء ؟!

لا أدرى ماذا أقول ..

اسألوا صورة أمى عند حافة المرآة ..

المحدقة بى منذ ليلة أمس ..

★ ★ ★

حول نفس منضدة أمس اجتمعنا ، أنا و(شيماء) و(مروة) ، وتغيبت (رحاب) عنا قليلاً لأمر ما ..

دار حديث بين (شيماء) و(مروة) لم أسمع منه كلمة ، ونأيت بنفسى عن المشاركة فيه ترفعًا ، فقد كنت غارقة فى عالم آخر بعيد ..

وجاءت (رحاب) أخيرًا فوزعت عدة نسخ من الوريقات على كل منا ..

ـ هذه آخر ملازم الدكتور (شحاتة)، يقولون إن امتحانه لن يخرج عنها أبدًا ..

مطت (مروة) شفتيها، ورفعت الوريقات إلى عينيها لتقول :

ـ ومن يضمن لنا هذا ؟!

هزت (شيماء) كتفيها وتطوعت بالإجابة :

ـ هذا ما حدث فى العام الماضى ..

كادت (رحاب) تقول شيئًا، لكنى سارعت بسؤالها فى لهجة أقل ما توصف به أنها جافة :

ـ كم الحساب ؟!

رفعوا إلى أعينًا مفعمة بنظرات الدهشة والاستغراب؛ لا أقول الاستنكار أو الاستهجان، وسألتنى (رحاب) نافضة رأسها :

ـ أى حساب ؟!

أجبتها ببساطة :

ـ حساب هذه الوريقات !

لعلها ظننتنى أمزح، فقالت ضاحكة :

ـ لا عليك يا عزيزتى، ما بين الخيرين حساب ..

قلت وقد اتخذت سمتًا فظيعًا :

ـ من فضلك أجيبينى !

نظرت (رحاب) إلى الأخريين فى حيرة، فسألتنى (مروة) فى حذر :

ـ هل تتحدثين بجدية يا (نسرين) ؟!

قلت ملوحة بسبابتى :

ـ أنا لا أمزح أبدًا فى هذه الأمور ..

قالت (شيماء) فى لهجة هجومية :

ـ ما بك يا (نسرين) ؟! تبدين فى غير طبيعتك منذ بدأ اليوم !

وضعت ساقًا فوق أخرى وقلت :

ـ هناك مبادئ أحب دومًا أن أسير وفقها !

بنفس اللهجة الهجومية هتفت بى (شيماء) :

ـ لعلك نسيت إذن أننا قد اتفقنا على أن يتولى كل منا تصوير النسخ من الملازم والمذكرات دوريًا ، وأن هذه المرة كان الدور على (رحاب) !

حقًا ؟! متى تم ذلك ؟!

كدت أسأل لكنى أحجمت حتى لا أؤكد لهن أننى فى غير طبيعتى ، وكاد الحرج يلتهم وجهى فآثرت الصمت ولم أجرؤ على النظر فى وجه أى منهن ..

أرادت (رحاب) أن تحول الأمر إلى دعابة فقالت :

ـ لابد أن السيد (س) الذى تكتبين عنه قد حيرك إلى حد فقدان الذاكرة !

لكنى صحت بها وقد قفزت العروق فى رقبتى :

ـ من ؟!

تلاشت الدعابة ، وران الصمت بيننا حتى قطعته (شيماء) بقولها :

ـ لست على ما يرام أبدًا يا (نسرين) !

وأيدتها (مروة) قائلة :

ـ ربما لم تنامى جيدًا البارحة ..

قلت وأنا لا أدرى ما سر غرابة أطوارى ؛ لم أكن منتبهة حتى لهذه الغرابة :

ـ بل نمت طويلاً .. وبعمق !

نهضت (رحاب) وقد قررت أن تكسر من تجهم المشهد بأى طريقة :

ـ ربما إذن بسبب دعوتك لنا بالأمس ..

ثم تابعت وهى تنهضنى من جلستى :

ـ هلمى معى ، سأدعوكن أنا اليوم قبل أن تصاب هذه المسكينة بالاكتئاب !

نهضت معها على مضض ، وسرنا نحو منضدة البيع ، لكنى فى منتصف الطريق ـ ربما بفعل الشرود أو لعله ترتيب قدرى بحت ـ اصطدمت بشخص ما ..

ـ أنا آسفة ..

(جميلة عباس) ، وكنت أنا المتأسفة ..

سقط كوب (الكاركاديه) الأحمر القانى من يدها على الأرض ، وتناثرت محتوياته كأنها دماء أضحية ، وسقط منها أيضًا باقى نقودها التى كانت تحملها فانحنت تجمعها ، وانحنيت أنا مواصلة أسفى :

ـ لم أكن أقصد أن ..

قاطعتنى ناظرة إلى بعينين لاح سوادهما فاحمًا وسط بياضهما الناصع :

ـ لا عليك ..

وكأنها نومتنى مغناطيسيًا ، لم أستطع رفع عينىَ عن عينيها ..

لمحتها تبتسم فى بهوت ، وتلاشت بسمتها لتعاود انحناءها جامعة نقودها المبعثرة ..

ـ هيا بنا يا (نسرين) !

لم أستجب لنداء (رحاب) على الفور ..

عيناى تعلقتا بشىء آخر ..

للدقة : بجرح آخر ..

ذلك الجرح القطعى على طول إبهام (جميلة) الأيسر ، الذى تبدى فى وضوح وهى تجمع النقود المبعثرة فوقَ الأرض ..

صدفة ؟!

أشك !

★ ★ ★

(٨)

هبطت من سيارة الأجرة هذه المرة وأنا أحمل أكياسًا معبأة بالخضراوات الطازجة ومستلزمات البقالة ، وتجاوزت عم (خضر) البواب الجالس أمام مدخل البناية كأمير الزمان متجاهلة نداءه المفعم بالثقة :

ـ أحمل عنك يا آنسة ؟!

بعيدًا عن كونها (عزومة مراكبية) ، فمهما تغيرت أطوارى سأظل أكن مشاعر سوداوية تجاه هذا المخلوق الفضائى الغريب الذى ينفث دخان النارجلية من أنفه وفمه ، والمدعو بالعم (خضر) !

فى المطبخ وضعت الأكياس ، وفركت كفىّ بمنتهى الحماسة استعدادًا للملحمة الكبرى ..

قررت اليوم ـ دون سابق إنذار ـ أن أتناول الغداء من صنع هاتين اليدين ؛ يدىّ !

بعبارة أخرى أوضح : قررت خوض تجربة المطبخ !

لو قلتها لنفسى بالأمس مقسمة بأغلظ الأيمان أننى سأفعلها لما صدقت ، أنا أمقت المطبخ والوقوف فيه وإعداد الطعام كالجحيم ، أعيش على خدمة التوصيل للمنازل التى لولاها لهلكت جوعًا منذ أمد بعيد ..

لكنه دافع قوى لم أقدر على مقاومته ..

ولم ألق بالاً أيضًا لهذا المنحنى الخطير فى مجرى حياتى المعتادة ، لم أشعر أصلاً بأن هناك تغيرًا ما ، لقد بدأت فى غسل الخضراوات وتقطيعها وتقشير البصل وإعداد الصلصة فوق النار وإضافة الماء للأرز المفلفل بحساب ، كأننى أجيد هذا الفن ـ فن الطهى ـ وأمارسه منذ عشرات السنين ، أو كأننى أبلة (نظيرة) شخصيًا !

أكثر من هذا ، تركت القدور فوق نيران الموقد الهينة لينضج ما فيها على مهل ، وفكرت فى إزجاء الوقت بسماع بعض الموسيقى ..

إلى الركن الخاص بأبى فى المكتبة اتجهت ، تجاوزت أكوام شرائطى وأسطواناتى الخاصة بـ (عبد الحليم) عشقى الأوحد الذى لا ينافس ، وانتقيت من مقتنيات أبى شريطًا لـ (أم كلثوم) التى أكن لها كل الاحترام ، لكنى لم تكن أذنى أبدًا مضبوطة على موجتها ..

لم أكن أتصور أن أفعلها يومًا ، لكننى الآن أضع شريط (كوكب الشرق) داخل المسجل الكبير القائم فى منتصف المكتبة ، وعبر السماعات الكبيرة يتصاعد الشدو الرخيم غامرًا أنحاء الشقة وأعماقى بالصفاء والسكينة !

هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا

عدت للمطبخ ، واندمجت مع الغناء ..

(الأطلال) بالذات هى ما بحثت عنه ، شعرت بأن هذه الأغنية مرتبطة بذكرى ما فى حياتى ، لكنى لم أعرف أبدًا ما هذه الذكرى ، وكعادتى مؤخرًا لم ألق بالاً ..

إنها أيامى المعتادة وأنا أعيشها كما تعودت أن أعيشها ، منذ عشرات السنين !

ومشينا فى طريق مقمر تشرو الفرحة فيه قبلنا

وضعت الأطباق فوق السفرة وأنا أدندن مع (الست) فى انسجام خرافى وسلطنة ، تصاعد البخار من الأرز والكوسة الغارقة فى اللون الأحمر ، تناولت الطعام بشهية وكان تقريبًا أشهى ما تناولت فى حياتى ..

نتيجة لا تصدق بالنسبة للمرة الأولى ، غير أن أحدًا لم يكن ليستطع إقناعى وقتها بأنها كذلك ، وأننى لست طباخة ماهرة محترفة تعرف ما تصنع ..

ماذا يحدث ؟!

لا أعرف بالطبع ، ولم يكن بوسعى استنتاج ما يمكن أن تكونوا قد استنتجتموه لحظتها ..

وضحكنا ضحك طفلين معًا وعدونا فسبقنا ظلنا

غسلت الأطباق ونشفتها ورصصتها فى نظام ، استمتاعى بما أفعل كان عبثيًا لو فكرت فى نفسى قليلاً كـ (نسرين) التى أعرفها ..

فى الغالب كنت وقتها (نسرين) أخرى فقدت عقلها !

أو ...

لعلنى لم أكن (نسرين) أصلاً !!

انتهيت جالسة فوق المقعد الهزاز ، لم أشعل التلفاز وظلت (أم كلثوم) تشدو فى غير كلل ، بينما انهمكت أنا فى قراءة الكتاب المصور الكبير الذى ابتعته قبل عودتى ؛ (كيف تعتنين بطفلك فى عامه الأول ؟) !

وبعد انتهاء المقطع السريع من (الأطلال) ، وبعد أن هدأت الموسيقى وأصبحت ناعمة خافتة شجية ، شعرت بالنعاس يدغدغ جفونى رويدًا رويدًا ..

وبالطبع لم استسلم له كليًا ..

دون قيد أو شرط ..

★ ★ ★

لم يدم الظلام هذه المرة أكثر من هنيهة خاطفة ..

عاد الضوء بعدها يغمر المكان ..

مازلت جالسة فوق المقعد الهزاز ، لكنى بلا كيان مادى ..

روح هائمة من جديد ..

الصالة مختلفة قليلاً ..

الحوائط غير مدهونة ، وإنما يلتصق فوقها ورق حائط عليه مناظر طبيعية ..

المكتبة ليست هى ، هناك مكتبة أخرى أصغر حجمًا وأقدم طرازًا ..

التلفاز أيضًا ليس هو ، بل جهاز آخر قديم يعرض حفلاً مسجلاً لـ (أم كلثوم) بالأبيض والأسود ، وهى تشدو برائعة (الأطلال) ..

يا حبيبى كُل شىء بقضاء ما بأيدينا خُلقنا تعساء

وهناك أريكة أمام التلفاز ، تتمدد فوقها امرأة أعرفها جيدًا ، لكنى لم أرها بهذا البطن المنتفخ من قبل ..

يدخل فى الكادر رجل أعرفه جيدًا ، حاملاً صينية عليها كوب واحد ممتلئ بسائل أحمر ..

ـ عصير الرمان مفيد لك جدًا فى الشهور الأخيرة يا عزيزتى !

ليس كما أراه دائمًا ، الشعر والسوالف أطول والتجاعيد غير موجودة ..

ـ هل تعتقد أنه سيكون ولدًا أم بنتًا يا (فاروق) ؟!

تسأله وهى تريح رأسها على كتفه بعد أن جلس ، فيمد يده مناولاً إياها الكوب ؛ وهو يجيب باسمًا :

ـ ليكن ما يكون .. المهم أنه سيكون رابطة أخرى تجمع بيننا ..

تتناول الكوب وترشف منه فى تكاسل ، بينما يتابع هو شاخصًا ببصره نحو المجهول :

ـ .. يقولون إنه خلال سنوات قليلة سيمكن الكشف عن جنس المولود باستخدام الأشعة فوق الصوتية ، لست متخصصًا فى أمراض النساء والتوليد كما تعلمين لكنه سيكون فتحًا طيبًا آخر يسجل فى التاريخ !

تقول فى دلال :

ـ هذا لا يمنع أنك ستتولى عملية الولادة بنفسك ..

ـ بالتأكيد !

تتغير لهجتها ونظرتها وملامحها فجأة وهى تقول :

ـ لكنى ما زلت خائفة ..

ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعد ما عز اللقاء

يمسك بيدها فى حنان وهو يهمس :

ـ مم يا (سعاد) ؟!

تنظر إليه نظرة يفهم منها الكثير ، فيقول معاتبًا فى لطف :

ـ .. حاولى نسيان الماضى من أجلى يا حبيبتى ..

تقول فى وجل :

ـ لا أستطيع .. خياله يطاردنى فى كل وقت ومكان !

يقول وهو يضغط بأصابعه على كفها :

ـ دعينا نتجاوز هذه النقطة ، ونفكر فى المستقبل ..

تنحدر عبرة من مقلتها وهى تقول فى ألم تكابده :

ـ لا أتصور أننى فعلت ذلك يا (فاروق) !

يمد يده ويمسح العبرة ، يقول مهونًا :

ـ لم تفعلى شيئًا ، هذا قضاء وقدر !

تنحدر عبرة أخرى ، وتقول فى إصرار :

ـ بل هو خطئى أنا ، أنا الجانية الوحيدة ..

يقول شادًا من أزرها :

ـ قدر اللّه وما شاء فعل ..

ـ لن أسامح نفسى أبدًا ..

ـ أنا سامحتك ، وهو أيضًا .. كونى واثقة من هذا !

فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء

تصمت المرأة الحزينة قليلاً ، ثم تقول محدقة فى وجهه :

ـ لماذا إذن أقرأ غير هذا فى عينيك أحيانًا ؟

يقبل كفها فى حب ، ويجيبها :

ـ مشاعرك تخدعك كالمعتاد ..

ثم ينهض منحيًا إياها عنه فى هون ، ويغير الموضوع قائلاً :

ـ .. أكاد أموت جوعًا ، ألن تعدى لنا العشاء بيديك مثلما يحدث كل يوم ؟!

تجيبه وهى تعتدل :

ـ العشاء جاهز ، لكننا ننتظر ضيفًا ..

ـ من ؟!

ـ صديقتى (ألفت) ، دعوتها اليوم لتشاركنا المائدة !

ومضى كل إلى غايته لاتقل شئنا ، فإن الحظ شاء

ـ لابأس !

وانحدرت عبرة أخرى ، من عينى أنا هذه المرة !!

* * *

لماذا لم أعد أصحو مؤخرًا إلا على رنين الهاتف الملحاح ؟!

نمت طويلاً من جديد ، الغروب ظاهر من زجاج الشرفة الموصدة ..

ترى من هذه المرة ؟!

رفعت السماعة قائلة وأنا أمط الكلمة كما لم أعتد من قبل :

ـ آلو ...

ـ (نسرين) ؟

قلت وقد تحول صوتى إلى صحراء جافة قاحلة :

ـ أهلاً (آلـ ... ، مدام (ألفت) !

لم تلاحظ من البداية الجفاء الذى أتحدث به ، ينقص هذه الحيزبون الكثير من دقة الملاحظة !

ـ هل تذاكرين ؟

قلت :

ـ كلا ..

ـ ماذا تفعلين إذن ؟

ـ لا شيء ، لا أفعل شيئًا !

لم تلاحظ حتى هذا الحد ، فقالت محاولة كعادتها أن تتظاهر بالأمومة :

ـ جيد ، أردت أن أعرض عليك الحضور اليوم لاجتماع مجلس تحرير الجريدة .. حاولى ألا تتأخرى إذ سيبدأ الاجتماع خلال دقائق ..

ـ لماذا ؟!

سألت فى تحد وحدّة ، فصمتت للحظة محاولة فهم السؤال ومغزاه ، ثم سألتنى بدورها :

ـ لماذا ماذا ؟!

ـ لماذا أحضر اجتماعًا كهذا ؟!

قالت وقد بدأت دقة ملاحظتها فى العمل أخيرًا على ما يبدو :

ـ أهذا سؤال ؟! لتستزيدى من الخبرة الصحفية بالطبع ..

ـ ولماذا أنا بالذات ؟!

هتفت بى منفعلة :

ـ ماذا دهاكِ يا فتاة ؟! ظننت أنى أسدى لك خدمة !

قلتُ بلهجة تحمل مغزى مخالفًا لما تبدو عليه :

ـ أنت تفعلين هذا منذ زمن بعيد ، وعلى خير وجه ..

كل لبيب بالإشارة يفهمُ ، لكن هـذه الشمطاء لالبٌ لها ، فقالت فى النهاية فى حسم :

ـ كلمة واحدة من فضلك يا (نسرين) ، هل ستأتين أم لا ؟!

ـ لا !

وأغلقت السماعة فى عنف دون حتى أن أقول كلمة وداع !

منتهى قلة الذوق واللياقة ، لكنه أقل ما تستحق !!

ظللت ألهث للحظات انفعالاً ، قبل أن أنتبه لأمر مفزع ..

جهاز التلفاز يعمل !!

لست أمزح ، ها هو ذا مفتوح على قناتى الإخبارية المفضلة ، وهى تعرض حلقة الأمس من البرنامج الذى يتحدث عن تحضير الأرواح ، مع كلمة (إعادة) فى أعلى الشاشة ..

لم يلفت هذا انتباهى بقدر ما أفزعتنى حقيقة ما يحدث ..

نعم ، بدأت ألقى بالاً أخيرًا ..

هناك شىء ما يحدث لى ، ومن حولى ..

أنا واثقة أننى قد غفوت وهو مغلق ، وأننى لم أنهض لتشغيله ..

هل أمشى فى أثناء النوم ؟!

تفسير أنيق ومريح لكل شىء ، خاصة نهوضى فى فراشى هذا الصباح لأجد كل شىء من حولى مرتبًا فى عناية ..

لكنه لا يفسر هذه الرؤى الغريبة ، وهذا التغير المريب فى تصرفاتى ، و ...

فزعت أكثر عندما انتبهت لأمر آخر ..

(سامى تيمور) ، خبير الروحانيات الذى يتحدث بهدوء على الشاشة ..

انظروا معى جيدًا إليه وهو يلوح بيده ..

دققوا فى يده اليسرى ..

إبهامه الأيسر ..

الجرح القطعى الطويل الملتئم !

كلا ، الأمر يتجاوز حيز الصدفة ..

يتجاوزه بمراحل !!

لا شك أن شيئًا ما يحدث ..

شىء رهيب .. رهيب ..

ومرعب إلى أقصى درجة ..

فزعت مرة أخرى ، عندما رن جرس الباب ..

رباه .. ما هذا الذى يحدث ؟!

ما هذا الذى يحدث ؟!

من يمكن أن يكون الآن ؟!

من ؟!

ابتلعت ريقى ، وتجاوزت هلعى ، وسرت ببطء فى الظلام المخيم نحو الباب ..

ـ من ؟!

قلتها فى مرحلة متوسطة بين الهتاف والخفوت ، ولم يرد أحد ..

كأن هناك مؤامرة لإرعابى يشترك فيها أهل الأرض جميعًا !

نظرت فى العين السحرية ، ورأيت الطارق الواقف فى اعتداد أمام الباب ..

وبالإضافة للرعب ، شعرت بالذهول !

فتحت الباب مسرعة وأنا أنظر إلى الوجه الشاحب والعينين الخضروين المنتفختين ، وهمست :

- (نهى) ؟!!

ابتسمت الأخيرة وهى تقول هازة رأسها :

- أجل .. مفاجأة غير متوقعة ، أليس كذلك ؟!

★ ★ ★

(٩)

- بلى ..

نطقت بها مفغورة الفيه ، كأنى مُغيّبة ..

- .. هى كذلك !

كان من المفترض أن أثور فى وجهها ، أن أعنفها على ما فعلت مع ابن عمى ظهر البارحة ، أن أقابلها بفتور على الأقل كما قابلتنى وأحرجتنى .. لكنى نسيت كل شىء ..

عقلى صفحة بيضاء ، و ...

(.. كأنها نومتنى مغناطيسيًا ، لم أستطع رفع عينىَ عن عينيها ..) !

- رحّبى بى كما يليق بك أن تفعلى يا أختاه ..

تألقت عيناها وهى تتكلم باسمة ، وتنحيت جانبًا لتدخل هى دون أن أنبس ببنت شفة ..

- .. لقد جئت إليك بناءً على طلب منه !

لم أدر كيف أغلقت الباب ، ولاكيف جلسنا فى الصالة ، ولاكيف سألتها باقتضاب :

ـ من ؟!

أجابتنى وبسمتها تسطع بالغموض :

ـ من ؟! وأين ؟! وكيف ؟! وهل ؟! ولماذا ؟! طوفان هادر ، وسيل لا ينقطع من الأسئلة التافهة الحمقاء ..

وأردفت مقتربة فى جلستها منى :

ـ آه يا أختاه ، ليت الإجابات تستحق شيئًا من هذا العناء !

لسبب لا أدريه شعرت أنها تعرف ما يشفى غليل فضولى ، ونهم تساؤلاتى ، ولسبب لا أدريه تمنيت أن تظل بصحبتى إلى الأبد ، لتحمينى من المجهول !

أردت أن أسألها آلاف الأسئلة ، لكن لم يند عنى سوى :

ـ ماذا تريدين منى ؟!

أجابت وهى تلمس وجهى بأطراف أصابعها الطويلة ، كأنها تداعب رضيعًا فى مهده :

ـ ماذا تريدين منى ؟!
أجابت وهى تلمس وجهى بأطراف أصابعها الطويلة ..

ـ تذبل زهرة العمر ، ويذوى عنفوان الجسد ، وتبقى الأرواح وحدها معلقة فى سماوات الكون الشاسع ؛ فى انتظار من يدعوها للحضور ..

تحضير الأرواح مرة أخرى ؟! هكذا ساءلت نفسى وجزء فى داخلى يستعيد ذكريات بعيدة عن فتاة بلهاء تدعى (نسرين الجبالى) ..

وعن طبيبة شابة تسكن بحوارى هى البلاهة نفسها تدعى (نهى) ..

ـ لست أفهم ..

قلتها فى براءة تليق بطفلة فى الحضانة ، فتراجعت (نهى) بظهرها إلى الوراء وقالت :

ـ بل تفهمين ، لكنك عاجزة عن التصديق !

فقط لو حدثتنى بصراحة !

ـ تصديق ماذا ؟!

سألتُ بفضول تلميذة فى الابتدائية ، فقالت دون أن يتلاشى من حديثها الغموض

ـ لقد رأيت كل شىء فى منزلى وفهمته ، قبل ساعات معدودة من دخولك فى زمرتنا !

أردت أن أسألها مجددًا كأننى أطارد الحقيقة فى عباراتها المبهمة ، لكنها سبقتنى مردفة وهى تشيح بيدها :

ـ .. آه ، يا لغبائى .. كان لابد أن أعرف أن كل شىء مرتب ، ومحسوب بدقة ..

سألتها فى عناد مراهقة :

ـ عم تتحدثين ؟!

تنهدت ، ثم قالت فى صبر كأنها تجارينى :

ـ الشموع ..

ألا ينقطع عندكم التيار أبدًا ؟!

ـ .. والجماجم ..

أنتِ طبيبة ، صحيح أنك تخرجتِ منذ مدة ؛ لكن الأطباء لديهم المبررات دائمًا لاستخدام بقايا البشر الفانين !

ـ .. والكتاب العتيق ..

ربما كانت هواية ، أعرف صديقة تهوى جمع علب السجائر القديمة برغم أنها لا تدخن !

ـ .. ولوح (الويجا) ..

هنا لم أجد تعليقًا مناسبًا فى أعماقى ، فلذت بالسكينة ؛ قبل أن أقول بحكمة امرأة ناضجة صقلتها تجارب السنين :

ـ أنتِ تحضرين الأرواح إذن !

لم أتوقع أبدًا أن يكون قولى طريفًا إلى الحد الذى يضحكها ، فى ظروف أخرى كان الضيق ليقتلنى كمدًا لكنى الآن متبلدة المشاعر تمامًا ، كقطعة من الثلج فى (الاسكيمو) !

ـ عذرًا يا أختاه ، لم أقصد إهانة ولكن ..

تمالكت نفسها أخيرًا ..

ـ .. مقاومتك للحقيقة البادية أمامك كشمس النهار تدهشنى حقًا ..

ـ أية حقيقة ؟!

استرخت فى جلستها وقالت هازة كتفيها فى تسليم :

ـ سألقص عليك ما حدث معى ، أنت الآن شقيقتى ويحق لك معرفة كل شىء عنى ..

ماذا تعنى ؟!

متى أصبحنا شقيقتين ؟!

سألتنى (نسرين الجبالى) فى داخلى ، بينما انطلقت (نهى) تقول ، ولسانها يقطر بلذة التذكر :

ـ .. مات أبى منذ سنين بعيدة .. تركنى وأمى وميراث معقول يفى على الأقل بمعيشتى فى العاصمة وبمستلزمات دراستى الطبية الباهظة أحيانًا .. ذهب وكنت فى أمسّ الحاجة إليه ، للمسة حنان من يديه أو لحضنه الدافئ الآمن .. كثيرًا ما كنت أتمنى وجوده لأتحدث معه ، لأستشيره على الأقل فى أمور لايمكن أن أستشير فيها غيره .. كنت أتمنى لو كان موجودًا فى أثناء خطبتى الأولى ، إذ لربما نبهنى لأوجه النقص فى الرجل اللامع من الخارج ، الذى يلتهمه دود العفن من الداخل ، والذى تركنى فى منتصف الطريق بمنتهى القسوة والوضاعة والدونية .. ربما أيضًا رأى الأمر على حقيقته العارية ـ بخبرته العريضة ورجاحة عقله كرجل ـ منذ البداية

ومنع عنى الصدمة النفسية الرهيبة التى تعرضت لها ؛ أقول ربما .. لكم تمنيت أيضًا أن يكون بجوار أمى المسكينة والمرض يفترسها بلا رحمة فى أيامها الأخيرة .. قبل أن تلاقى هى الأخرى وجه ربها ، وأصبح وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة ، لا أحد لى ولا أنا لأحد !

تنهدت ، ولم يبد على وجهها أى أثر للألم وهى تتابع :

ـ .. منذ ماتت أمى وأنا فى جحيم ملتهب ، فقد كانت آخر سبب يربطنى بالحياة .. مؤمنة أنا بالقضاء والقدر ، هذا ليس مجالاً للنقاش ، ولعل إيمانى هذا هو ما دعانى للتراجع عن فكرة الانتحار ، ودفعنى لطريق آخر ملىء بالزهور والأشواك ؛ أعنى التفكير فى محاولة الاتصال بروح أمى ..

وفرقعت بأصبعيها فجأة ..

ـ .. جاءتنى الفكرة فى لحظة إلهام نادرة منذ عدة أشهر ، ومن يومها وأنا أقرأ وأبحث فى هذا الموضوع بشغف واندفاع .. قرأت تلالاً من الكتب ، وبحثت فى كل زاوية بشبكة الإنترنت ، وجربت الطرق الشهيرة مثل السلة والبللورة والبندول

و(الويجا) ، وهبطت إلى العالم السفلى الرهيب الممتلئ بالوسطاء الآفكين والسحرة الدجالين والمشعوذين ، استهلكت أغلب ماتبقى من ميراث أبى ولم ينتج شىء عما فعلت ، حتى وجدت النسخة الأصلية من الكتاب الذى رأيته لدىَ ؛ (مفتاح الملك سليمان) .. كلفنى صدفة وثروة لكنى كنت واثقة أننى سأجد ضالتى بين غلافيه السميكين ، جلست أيامًا أفك طلاسمه وأترجم ما فيه إلى خطوات تنفيذية ، فهذه الكتب تحاول أن تجعل المسألة معقدة جدًا وغير مفهومة بالنسبة للهواة .. ووجدت فى النهاية طريقة عبقرية وصفها الكتاب بمنتهى الوضوح ، تعتمد على لوح (الويجا) والشموع والبخور والجماجم ..

ثم أشارت إلى الجدار العريض الذى يفصل بين شقتى وشقتها ، وللغرابة التى لم أشعر بها وقتها تلاشى الحائط ، ورأيت شقة (نهى) من الداخل بذوقها (الباروكى) وفوضاها العارمة ، ورأيت أيضًا (نهى) جالسة حول الطاولة المستديرة ، برغم أنها ما زالت تجلس بجوارى !

كأنى أتابع مقطعًا شيقًا من فليم سينمائى !

ـ .. وجاء يوم التنفيذ ، حرصت على الدقة فى كل شىء .. وكنت وحدى ..

أراها تجلس أمام اللوح ، شاحبة ومنتفخة العينين كما هى الآن ، وحولها على أطراف المنضدة ، أمام المقاعد الثلاثة الشاغرة ، ثلاث جماجم ، وضعت فى محاجرها شموع بألوان مختلفة ، بينما يفوح دخان البخور من مكان ما ، وربما أكثر من مكان ..

ـ .. حاولت ، وحاولت ، وحاولت ..

أراها وأسمعها تتمتم بكلمات ما ، تغلق عينيها وتحاول تركيز ذهنها فيما تفعل ، تحرك يديها فوق مؤشر لوح (الويجا) المعدنى ببطء ونعومة فى حنق ، تنتزع يداها المؤشر المعدنى وتضغط عليه قبضتاها فى انتظار رسالة أمها ، تحاول ، وتحاول ، وتحاول ، ولكن ..

ـ فشلت كل المحاولات ..

أراها تفتح عينيها فجأة ، يبرز جانبا فكيها فى حنق ، تنتزع يداها المؤشر المعدنى وتضغط عليه قبضتاها فى قوة حتى ..

ـ .. جُرحت ، وسال الدم من يدى ..

يجرح المؤشر إبهامها الأيسر ، وتتناثر خيوط الدم على اللوح والجماجم والمنضدة ..

ـ .. وهنا ..

فجأة تتطاير الستائر ، ويأخذ المصباح الخافت المعلق على الحائط فى الإضاءة الشديدة والخفوت الشديد بالتبادل ، وتتراقص الشعلات فوق هامات الشموع ، وتبدو الجماجم كأنها تضحك ..

تفزع (نهى) حتى الموت ، لكنها تتمالك نفسها فى فرحة عندما يتحرك المؤشر بين يديها بكل سهولة وسلاسة !

ـ .. حضرت روح أمى ، وكلمتنى طوال ليلتها عبر لوح (الويجا) ..

وهنا عاد الحائط يفصل بيننا وبين المشهد ، ونظرت إلى (نهى) التى ابتسمت من جديد وقد ازدادت غموضًا وهى تقول :

ـ .. عندها ، وعندها فقط ؛ بعد أن سال الدم من جرح إبهامى الأيسر أصبحت واحدة من (إخوة الدم) !

ربما لم أسمع عبارتها الأخيرة ، وربما سمعتها لكنى لم أدركها ..

لقد كانت (نسرين الجبالى) فى داخلى تحاول فهم التشابه بين ما حدث مع (نهى) وما حدث لى ..

وقد أفزعتنى استنتاجاتها بحق ..

رباه ، هل تقمصت روح (سعاد خورشيد) جسد ابنتها (نسرين) ؛ أنا ؟!

هاذا هو التفسير الأنسب لكل ما حدث ويحدث ..

لقد كنت أرتدى ملابسها وأضع زينتها عندما سال دمى بطريق الخطأ فوق أشيائها ، فحضرت روحها وتقمصتنى ، وقامت بترتيب الحجرة وتغيير ملابسى وإيداعى سريرى كما تفعل أى أم محبة لابنتها الوحيدة !

أكثر من هذا ، لست أنا التى طهوت طعام اليوم ، ولا أنا التى انسجمت مع (أم كلثوم) ، ولا أنا التى نسيت اتفاقى مع صديقاتى ، ولا أنا التى عاملت السيدة (ألفت) بفظاعة ، ولا أنا التى تجمدت مشاعرى ، إنما هى ..

أمى ؛ (سعاد خورشيد) !

ثم ، هذه الأحلام والرؤى ...

يا للرعب ويا للغرابة !

ـ من ؟!

سألتها مقطبة وقد اصطدمت الكلمتان الأخيرتان اللتان قالتهما بأذنى ، فقطعتا حبل أفكارى الممتد من الفراغ إلى العدم ..

ـ عن (إخوة الدم) أحدثك يا أختاه !

ـ من هؤلاء ؟!

سألتُ وقد دارت الدنيا من حولى حول محور هو أنا ، وأجابتنى بسؤال :

ـ تسألين عنهم وأنتِ منهم ؟!

سألتها من جديد وقد بدأت أشعر باتفراط عقد أعصابى المتماسكة :

ـ من هؤلاء ؟!

ـ ليكن .. سأساعدك على فتح بوابات عقلك المغلقة ..

وأخذت (نهى) نفسًا عميقًا بعد إذ أغمضت عينيها ، ثم قالت وهى تفتحهما لينتشر منهما بريق متألق :

ـ أخوَة الدم يا أختاه هي رابطة بلا نسب ، إنها رابطة أشد وأقوى وأكثر تماسكًا من رابطة الدم .. إن الإخوَة

موجودون فى كل مكان منذ الأزل ، وسيظلون حتى نهاية الأزل ، لكنكِ لن تستطيعى رؤيتهم - برغم وجودهم الدائم من حولكِ - ما لم تكونى منهم ، ومنهم الآن أنتِ !

كدت أهتف بها بأننى لا أعرف عمن تتحدث ، وأننى لست من هؤلاء المدعوين بـ ...

- إخوة الدم لا يَختارون ، إخوة الدم يُختارون .. وحده الدم يختارهم !

قالتها لتردد على ما لم أتفوه به ، ثم إنها رفعت إبهامى الأيسر المجروح وفردته أمام عينى الخاوية لتردف :

- .. وقد اختارك الدم كى تصيرى منَا ، وكى تحرري روح أمك من الألم الذى تكابده ..

قلت وأنا أنظر إلى اللا مكان :

- أمى ؟!

ابتسمتْ ، وربتت على كتفى فى تعاطف قائلة :

- نعرف عنك كل شىء ، إخوة الدم يعرفون عن بعضهم كل شىء ولا تسألينى كيف ؟!

ستعرفين وحدك بمرور الوقت !

ما دام الجرح الكائن فى الإبهام الأيسر هو دليل الأخوّة المزعومة ، إذن فأنا و(نهى) و(جميلة عَباس) و(سامى تيمور) - الذى مازال يتحدث على الشاشة - إخوة دم !

يا للارتباك ويا للعبث !

- فى الأمر خطأ ما بالتأكيد ..

اتسعت بسمتها وهى تعاود التربيت على كتفى وتقول :

- مازلت تقاومين الحقيقة الواضحة كشمس النهار يا أختاه !

ثم إنها أنهضتنى وهى تتابع :

- .. هيا .. بدلى ملابسك وهلمى معى حتى تتلاشى لديك كل الشكوك ..

- إلى أين ؟!

سألتها دون سبب ، فقد كنت لأتبعها إلى المريخ لو طلبت منى ذلك !

- إن الإخوة فى انتظارك !

رددتُ الكلمة كالمأخوذة :

ـ الإخوة ؟!

أومأت برأسها أن نعم ، ثم قالت :

ـ إخوة الدم يحتفلون دائمًا بكل أخ جديد يختاره الدم ..

وثانية رددتُ وراءها دون أن أعى :

ـ يحتفلون ؟!

وثانية هزت رأسها ..

ـ فى قبو القصر الذى نجتمع فيه دائمًا ..

وعندما نظرت لها قالت مفسرة :

ـ .. (قصر البارون) !

ثم إنها دفعتنى نحو غرفتى دفعًا وهى تحثنى بقولها :

ـ هيا لا تتأخرى ، قد يحضر الأخ الأكبر بنفسه هذا اللقاء !

لم أدر كيف بدلت ملابسى ، فقد كنت غائبة فى نظرات أمى عبر صورتها المعلقة بحافة المرآة ..

لم أدر كيف غادرت المنزل ، فقد كنت أسير خلف (نهى) كطفل يخشى فقد أثر أمه وسط الزحام ..

لم أدر كيف هبطت الدرجات ، ولا كيف وقفنا أمام البناية ، ولا كيف ترك العم (خضر) مكانه المعتاد بجوار مدخلها ، ولا كيف اختفت السيارات الرابضة أمامها ، ولا كيف تلاشى السائرون والمارة فى الشارع الذى تطل عليه ..

لم أدر شيئًا البتة !

فجأة رأيت مصابيح تلك السيارة المقتربة من بعيد ، ولما اقتربت ميزت كونها (١٣٢) فضية قديمة بحالة جيدة ، وزجاجها داكن من جميع الجهات بحيث يستحيل أن ترى داخلها من الخارج ..

توقفت السيارة أمامنا تمامًا ؛ أنا و (نهى) ، وقالت الأخيرة مقتربة من بابها الخلفى :

ـ اركبى فى المقعد الأمامى ، فأنتِ عروس الليلة !

راقبت البدر المستدير كعملة معدنية فى سواد السماء المظلمة ، ثم ركبت على الفور ، لأرى قائد السيارة المبتسم فى غموض ، والمشير لى بإبهامه الأيسر المجروح ..

(هذا الفتى ذو الجسم الرياضى بعضلاته المفتولة ورأسه الحليق وملابسه التى لا تزيد عن تى شيرت ضيق جدًا وبنطال واسع جدًا ملىء بالجيوب ؛ لا يمكن إلا أن يكون ...) ..

(صلاح) : جارى الساكن بمفرده فى الشقة العلوية ، والذى ظننته مدمنًا لأفاجأ بأنه هو الآخر من إخوة الدم !

ـ إنه يحييكِ ، هكذا يحيى إخوة الدم بعضهم يا (نسرين) ..

وأشارت (نهى) بإبهامها الأيسر المجروح ..

ثم انطلقت بنا السيارة على الفور ..

* * *

(١٠)

بقدر ما يجهل الكثيرون كل شىء عن البارون (إدوارد إمبان) (١٨٥٢ ـ ١٩٢٩) ، بقدر ما يعرف الجميع ضاحية (مصر الجديدة) ، وذلك القصر الغامض القائم على أطرافها ، المطل على شارع (صلاح سالم) الآن ؛ (قصر البارون) ..

المذكور رجل صناعة أوروبى الأصل بلجيكى النشأة ، وبالإضافة لكونه صاحب القصر ، هو أيضًا صاحب فكرة إنشاء وتصميم الضاحية بأكملها !

يروى التاريخ أنه فى عام ١٩٠٥ تقدم البارون (إمبان) مع شريك له باقتراح للحكومة المصرية ، لإنشاء ضاحية سكنية جديدة على أطراف العاصمة ، وذلك لإقامة منازل وقصور أبناء الطبقة الارستقراطية فيها بعيدًا عن زحام وسط المدينة وضجيجها ..

وافقت الحكومة ، وباعته مساحة كبيرة من الأرض الصحراوية بسعر زهيد جدًا : جنيه واحد للفدان ..

وبدأت (مصر الجديدة) تولد كحلم على الورق ، وسرعان ما تحول الحلم إلى حقيقة عندما بدأ البارون فى إنشاء شركات للكهرباء والمياه والمترو والبناء وتقسيم الأراضى ، وفى وقت قياسى تحولت الأرض البكر إلى مدينة جميلة هادئة ..

اختار البارون (إمبان) موقعًا متميزًا منها ليبنى قصره ، الذى أراد جعله تحفة معمارية لم ترها (مصر) كلها من قبل ، فأسند التصميم إلى المهندس المعمارى (ألكسندر مارسيل) ، وقرر الأخير أن يجمع القصر أسلوبين معماريين مختلفين ، يضمهما نسق واحد متناغم ، الأسلوب الأول : يعود لفن عصر النهضة وقد حققه فى التماثيل الخارجية لسور القصر ، والأسلوب الثانى : يعود لطراز مستوحى من الأساطير الهندية القديمة ، فصنع قبة وتماثيل بوذية وزين الحجرات بتماثيل تجسد هذه الأساطير ..

استغرق بناء القصر عامين ، وقد استورد البرون لأجله أفضل الخامات من مختلف الدول ، وأقام فيه حتى مات وخلفه ابنه حتى قامت الثورة عام ١٩٥٢ ، فتم بيع القصر فى مزاد علنى ، ليغلق من وقتها حتى يومنا هذا ، ولتدور حوله الكثير من الحكايات وتنسج المخيلات الخصبة عنه الكثي من الأقاصيص ..

ربما ليس هذا وقت فذلكات تاريخية واستعراض عضلات ثقافية ، لكنى قد فعلتها وانتهى الأمر !

بقى أن أقول إن القصر مكون من طابقين يضمان ٦ حجرات كبيرة وصالتين واسعتين ، وهناك برج كبير على يساره مكون من ٤ طوابق بينها سلم خشبى حلزونى ..

وبقى أيضًا أن أقول إن القصر طالما داعب مخيلتى وأنا أمر من هذا الشارع الحيوى المفضى إلى طريق المطار ، وإننى طالما ساءلت نفسى عن تلك الحكايات التى يروونها عنه وعن مدى مصداقيتها ..

ولم أكن أتصور أنه سيأتى الوقت الذى ينكشف فيه كل شىء أمام عينىَ ..

كل شىء !

* * *

الشوارع خالية من السيارات والبشر ، كأننا فى مدينة هجرها قاطنوها ..

ترى ، هل بدأت أهلوس ؟!

ـ لا تقلقى يا أختاه ..

قالتها (نهى) من المقعد الخلفى وقد قرأت أفكارى على ما يبدو ، فنظرت لها وهى تكمل :

ـ .. يستغرق الأمر وقتًا حتى تعتادى على التصرف كواحدة من إخوة الدم !

عدت أنظر من الزجاج الداكن ، ورأيت كل شىء قد عاد إلى طبيعته ..

السيارات والناس والزحام يملأ الشوارع القاهرية الليلية ..

بالفعل ، أحتاج وقتًا حتى أتأقلم مع هذا الجنون !

لأفرغ رأسى الآن من كل هذا ، ولأسنده على ظهر المقعد فى راحة واسترخاء .. مساء الخير .. يا حلوة ..

مساء الخير .. يا قديستى الحلوة .. (مع الاعتذار لنزار قبانى) !

مساء الخير يا أمى ..

لست أرى أمامى الآن سواك ، صورتك المعلقة فى حافة المرآة ومركز أفكارى ..

ماذا بك ؟! ما الذى يزعجك إلى هذا الحد ويقض عليك مضجعك ؟!

أى جريمة ارتكبوها فى حقك لتموتى شابة ، ولأحرم منك بقية عمرى ؟!

ماذا تحاولين أن تقولى لى وما زلت عاجزة ؟!

أى جناية تلك التى تحدثينى عن ارتكابك لها ؟!

ماذا فعل بك أبى ؟!

وكيف خانتك (ألفت) الصديقة الصدوق ؟!

هل تريدين منى أن أصنع لك شيئًا حتى تهدئى بالاً ؟!

أم تريدیننى فقط أن أعرف الحقيقة ؟!

صارحينى بكل ما تريدينه ، وستجدیننى طوع بنانك ..

تمثلى لى حلمًا أو حقيقة أو رؤية أو رؤيا ، وسأصنع لك كل ما تبغين ..

فقط لو أعلم ما الذى تريدين ..

فقط لو أعلم !

أشارت (نهى) بطرف سبابتها نحو نهاية الشارع الذى نسير فيه ، وقالت منتشلة إياى من بحر الخواطر :

ـ ها قد وصلنا ..

وتبدى القصر من بعيد ..

شامخًا .. صامتًا .. مهجورًا ..

ومخيفًا ..

(قصر البارون) ..

اقتربنا واقتربنا ، وأوقف (صلاح) السيارة فى شارع جانبى مظلم ، ثم هبطنا ليلفح هواء الليل العليل وجوهنا الشاحبة ..

سرنا بحذاء السور الخفيض ، وتوقفت وحدى أمام ثغرة تسمح بعبور جسد آدمى ، بينما استمرا هما يمشيان نحو البوابة الرئيسية ..

ـ ألن ندخل من هنا ؟!

توقفا ، والتفتا نحوى لألمح الاستغراب على قسمات (صلاح) ، والعطف فى عينى (نهى) وهى تقول :

ـ إخوة الدم لايتسللون أبدًا من الأبواب الخلفية يا عزيزتى!

ابتلعت ريقى ، وقلت فى شىء من الوجل :

ـ لكن .. الخفير ..

اقتربت منى ، وجذبتنى من ذراعى لنواصل المسير ..

ـ إخوة الدم لا يراهم أحد إلا إذا أرادوا هم ذلك ..

حقًا ؟!

لقد أوحى واحد منهم إذن لـ (هـ . جـ . ويلز) برائعة (الرجل الخفى) الشهيرة !

لم أقلها لكنى كنت سعيدة بمحافظتى على حسّى المتهكم السمج برغم كل ما يحدث ..

توقفنا أمام البوابة الرئيسية ، كانت مواربة والخفير جالس بجوارها يمص عودًا سميكًا من قصب السكر فى تلذذ ، والغريب أنه لم يشعر بنا مطلقًا ..

كأننا هواء !

عبرنا من جواره ، وخفق قلبى بشدة عندما نجحنا فى ذلك ، يبدو أننا خفيون بالفعل ، أو أننى جننت لا محالة !

سرنا نحو المدخل الأمامى للقصر ، وأمامه تمامًا توقفنا ..

فى ظروف أخرى كنت سأعجب بالتماثيل والنقوش والحس الجمالى العالى الذى شوهته بعض تعليقات المتسللين المتظرفين ، الذين يأبون إلا أن يكتبوا عبارتهم الخالدة مثل (للذكرى

الهباب) و(الحب الحقيقى) بتوقيعات معبرة مثل (ميدو الوحش) و(تايجر الزعيم) ..

ـ استعدى يا أختاه .. سنهبط الآن إلى القبو ..

ـ ألن ندخل القصر أولاً ؟!

عادت (نهى) تبتسم فى شفقة ، بينما أخفى (صلاح) تعجبه خلف صمته الدائم ، وانحنى ليجذب حلقة معدنية خفيفة أمام المدخل تمامًا ..

وانفتح مربع فى الأرضية الرخامية التى تعلوها التراب على سبيل التمويه بالطبع ..

ـ هيا .. كونى متأهبة !

أردت أن أخبرها أننى أكاد أنفق رعبًا ، لكنها دفعتنى للهبوط قبلها ففعلت ، وعلى الدرجات الحجرية الممتدة لأسفل سرت فى بطء ، وكلما توقفت مراقبة الجدران الحجرية الغريبة التى تحمل شموعًا مضاءة ، دفعتنى يد (نهى) دفعات خفيفة لمواصلة الهبوط ..

هبطت وهبطت طويلاً حتى خلتنا فى رحلة إلى مركز الأرض ، لكننا فى النهاية توقفنا أما بوابة عالية ذات مصراعين مبطنة بالقطيفة الحمراء ، ويرتسم فى منتصفها هرم ذهبى مشطور إلى نصفين ..

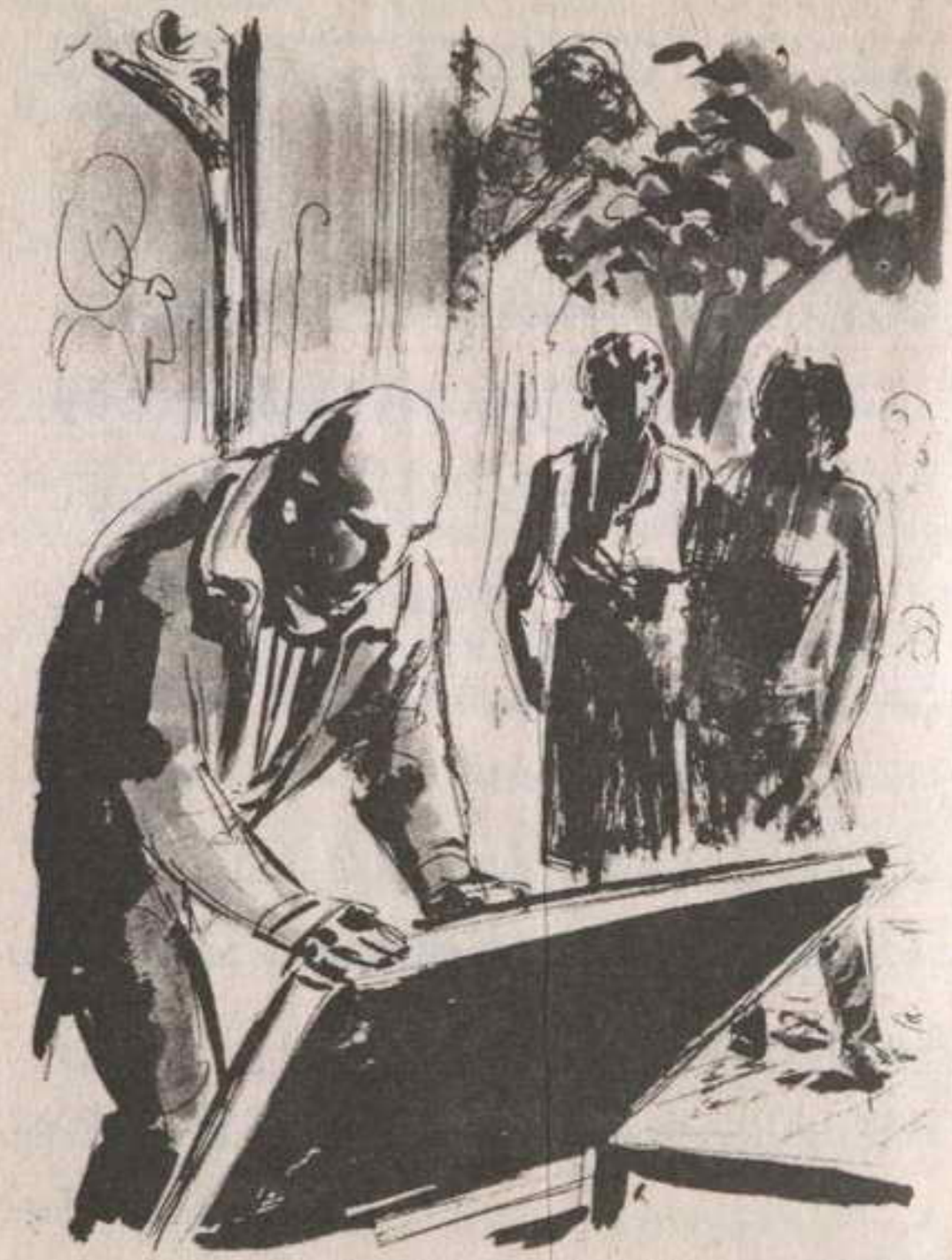

وانفتح مربع فى الأرضية الرخامية التى يعلوها التراب على سبيل التمويه بالطبع ..

وقفت ألهث ، وتقدمت (نهى) و(صلاح) أمامى ليمسك كل منهما بمقبض من مقبضى المصراعين ..

قالت (نهى) وهى تنظر إلى باسمة :

ـ إنهم خلف هذه البوابة .. هل أنت مستعدة ؟!

أومأت لها برأسى ، وهمست فى انفعال مهول :

ـ بالتأكيد !

ـ مرحبًا بك إذن بين إخوة الدم ..

انفتح المصراعان بدفع منهما ، واتسعت عيناى عن آخرهما وأنا أرمق ما وراء البوابة ..

القبو الذى تصورته خرابًا ترتع فيه العناكب والحشرات وتغطيه الأتربة ، ليس إلا قطعة من الفردوس المفقودة ..

ثريا هائلة فى السقف ، والحوائط كلها مبطنة بالقطيفة الحمراء والإطارات المذهبة ، الأرض تلمع بخشب (الباركيه) ، ثم تلك الرائحة ..

بخور يسكر العقل والوجدان ..

.. وعشرات من الإخوة والأخوات ، اصطفوا فى نظام عجيب ، وصنعوا ممرًا خاليًا يمتد من الباب حتى نهاية القبو ، حيث منصة عالية مرتفعة ..

الإخوة كلهم حليقو الرءوس ، والأخوات كلهن تتدلى من آذانهن أقراط كبيرة ذات شكل موحد ؛ هرم كبير ذهبى اللون ..

انضم (صلاح) إلى الصف الإخوة ، وانضمت (نهى) إلى الأخوات ، ولست أدرى متى وضعت القرطين الكبيرين فى أذنيها ..

كل يمسك شمعة فى يده اليمنى ، ويشير نحوى بإبهام يده اليسرى ذى الجرح الملتئم والجميع يبتسمون عين الابتسامة الغامضة ..

ووجوه .. بحر من الوجوه المألوفة ..

(جميلة) ، أراها جيدًا فى وقفتها هناك ..

دعكم من (نهى) و(صلاح) ..

الباقون وجوه غير معروفة لكنها مألوفة بشكل ما ، أغلبها مر على عينى ولو بشكل عابر ، أم أنه شعور حق بالأخوة قد بدأ يتسرب إلى قلبى ؟!

شىء ما يدعونى للدخول والسير فى الممر الذى يصطفون على جانبيه ، ربما نظرات العيون الشاخصة نحوى ، كأننى عروس بالفعل ينقصنى عريس لأتأبط ذراعه ، ونمشى معًا فى أغرب زفة فى التاريخ !

لكن شيئًا آخر يدعونى للإحجام ..

بل وللهرب من هذا العبث كله ..

وهل للهرب الآن من سبيل يا (نسرين) ؟!

ورأيت المنصة البعيدة تنشق فجأة عن شخص ما ، ابتعدت النظرات عنى نحوه ..

(.. شاب غريب المنظر حقًا ، برأسه الحليق تمامًا على النمرة (زيرو) ، وعويناته الصغيرة المستديرة ، وجلده المشدود الذى يلمع كأنه مدهون بالورنيش ، وملابسه البسيطة التى لا يظهر منها سوى (تى ـ شيرت) أسود رسم فوقه هرم ذهبى ..) !

(سامى تيمور) .. تمامًا كما رأيته فى التلفاز اليوم وأمس ، مع حرملة سوداء غريبة تنسدل فوق ظهره ، وجسمين لم أتبين كنههما يتدليان من قبضتيه المضمومتين ..

ـ تقدمى .. تقدمى يا أخت الدم .. تقدمى ولاتخشى شيئًا ، فكل من هنا إخوتك .. تقدمى ..

(.. صوته ناعم جدًا يبعث فى الأوصال الخدر ، ويلقى على الأجفان غبار النعاس السحرى ..) مازال !

وتقدمت دون وعى منى أو شعور ..

ـ .. هناك روح تعاتى فى جسدك الفانى ، جميعنا يعلم هذا .. تقدمى يا أختنا ولاتخشى شيئًا ، لسنا هنا إلا لكى يساعد بعضنا بعضًا ..

واصلت التقدم سائرة بين الإخوة ، والخوف فى داخلى يتلاشى شيئًا فشيئًا ..

وبدأت أميز ما يتدلى من قبضتيه مع اقترابى ..

ـ .. لسنا هنا إلا لأن الدم قد جمعنا ، فأصبحنا إخوة .. شعورنا واحد ، همنا واحد ، وفرحنا واحد ..

القرطان اللذان سأثبتهما فى أذنىّ ، لأنضم إلى صف الأخوات ..

ـ .. الدم ، قوة الحياة .. ونبع الخلود .. وسر البقاء ..

توقفت فى النهاية أسفل المنصة ، وقد تعلقت نظراتى بالقرطين ومن يمسك بهما ..

قلت ولا أدرى كيف غادر الصوت حنجرتى :

ـ أنت إذن الأخ الأكبر ؟!

أرخى (سامى تيمور) جفونه قليلاً ، ولاحت فوق شفتيه نفس البسمة الغامضة التى علت شفاه الأخوة ، قبل أن يهز رأسه نفيًا ويقول :

ـ كلا .. لست هو !

لم أتوقع هذا مطلقًا ، لكن وجهى لم يعط محدثى أى انفعال من أى نوع كان ..

ما أنا إلا واحد من الإخوة المخلصين والمقربين ..

ومد قبضتيه نحوى بالقرطين مردفًا :

ـ .. خذى يا أختاه ، ارتديه لتصبحى واحدة منّا ..

لكنى لم أمد يدى ، وسألته فيما يشبه العناد :

ـ من يكون الأخ الأكبر إذن ؟!

عادت البسمة الغامضة تعلو كل الشفاه ، مع صمت بليغ لم يبدده شىء ..

ـ .. من يكون ؟!

سألته بلهجة حاولت إكسابها بعض الإصرار ، لكنه لم يجب ..

ـ .. من يكون ؟!

توجهت بسؤالى لبقية الإخوة هذه المرة ، ومن جديد لم يجبنى إلا الصمت والبسمات المشبعة بالغموض ..

وفجأة شهق الجميع ، وخروا ساقطين أرضًا على سيقانهم ، منكسى رءوسهم على الشمعات التى يحملونها فى أيديهم ..

استدرت نحو (سامى تيمور) ، هو الآخر استند بركبتيه على أرض المنصة العالية ونكّس رأسه الحليق ، دون أن يسقط القرطان من بين يديه ..

صرخت فيه وقد أرعبنى ما يحدث حتى الارتجاف :

ـ ماذا تفعلون ؟!

لم يرفع نحوى رأسه ، وإنما أشار بيديه إلى نقطة خلف ظهرى قائلاً بكل إجلال :

ـ لقد حضر الأخ الأكبر !

التفتُ نحو ما أشار ، وتراجعت إلى الخلف وأنا أكاد أصرخ من فرط ما اعترانى من مشاعر متضاربة ..

انظروا هناك إلى البوابة التى دلفت منها قبل لحيظات ..

انظروا إلى ذاك الواقف فى اعتداد ..

غارق فى الظل ..

كأنه جزء منه ..

واسمعوا جيدًا صوته الأجش وهو يقول لى، لتدوى كلماته فى الصمت المهيب الذى يغشى المكان :

ـ مساء الخير ، يا صغيرتى !

إنه هو ...

رباه ، هو بنفسه ..

واصلت تراجعى فى هلع إلى الخلف ..

وسقطت فوق الأرض اللامعة بخشب (الباركيه) ..

وفى الغالب ، فقدت الوعى !

★ ★ ★

[تم الجزء الأول بحمد الله]

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

فى كل رواية متعة دائمة !!

محمد سليمان عبد المالك

مغامرات "س"

أخوة الدم

الجزء الأول

أخوّة الدم هى رابطة بلا نسب ؛ رابطة أشد وأقوى وأكثر تماسكًا من رابطة الدم ..

إن الإخوة موجودون فى كل مكان منذ الأزل ، وسيظلون حتى نهاية الأزل ، لكنك لن تستطيع رؤيتهم - برغم وجودهم الدائم من حولك - ما لم تكن منهم ..

هل حقًا ترغب فى أن تنضم إليهم ؟!

للأسف ، إخوة الدم لا يَختارون ، إخوة الدم يُختارون ..

الدم وحده يخ[illegible]م ، واسأل (نسرين الجبالى) !

مطابع سلاح التلميذ

الثمن فى مص[illegible]
وما يعادله بالدولار ا[illegible]
فى سائر الدول العربية والعالم